

قصائد إنسانية

سيسر بايخو ترجمة: صالح علماني



تمت رقمنة هذا الكتاب ضمن برنامج النشر الرقمي

Digital
Publishing
Program
برنامج
النشر
الرقمي



هيئة الأدب والنشر والترجمة
Literature, Publishing & Translation Commission

قصائد إنسانية

سيسر بايخو

ترجمة: صالح علماني

مقدمة

ولد الشاعر سيسر بايخو في بلدة سنتياغو دي تشوكو في جبال الأنديز بالبيرو عام 1892، ومات في العاصمة الفرنسية باريس عام 1938. وعلى الرغم من حياته القصيرة، يعدّ بايخو واحداً من أعظم شعراء اللغة الإسبانية في كل العصور، وأكثرهم صعوبة وتعقيداً على الإطلاق. ولكنه يبقى مع ذلك أحد أوسع الشعراء شعبية، وربما كان السبب في اتساع شعبيته هو قدرة أشعاره على إيصال انفعالات ذاتية مكثفة تهز وجدان القارئ حتى وإن لم يتوصل إلى فهم كاملٍ لمعاني القصيدة. وبهذا توصل بايخو إلى مآثرة صعبة تتمثل في الجَمع بين عاطفة تواصلية هائلة ولغة تجريبية استكشافية يتطلع من خلالها إلى التعبير عما لا يمكن التعبير عنه. ولأن بايخو يرفض الدلالة الاصطلاحية للكلمات، فإنه يحاول أن يضفي عليها دلالات جديدة، فيورد المفردات أحياناً بصورة تُفقد ترابطها المنطقي، ويعمد إلى خلخلة اللغة والقطيعة مع القناعات السائدة، فعلى سبيل المثال، تقول الناقدة جين فرانكو في تاريخها للأدب الأمريكي اللاتيني: «ينهي بايخو إحدى قصائده بعبارة *Hasta el hueso* «حتى العظم»، وهو تعبير له إيقاع مشابه جداً لعبارة *Hasta luego* «إلى اللقاء» وكأنه أراد أن يكون لعبارته وقع مألوف، إلى أن يتلقى القارئ الصدمة القوية بكلمة «العظم» الغريبة عن السياق، والتي تظل معزولة وعارية مثل جمجمة على منضدة كاهن. فندركُ للمرة الأولى ونفهم ما الذي نقوله حقاً حين نستخدم صيغة «إلى اللقاء»، وحين نفهم ذلك تنفتح أمامنا هوة مرعبة. فبايخو يفكك اللغة الإسبانية مثلما لم يحدث قط من قبل، وذلك في المقام الأول لأنه (...) يعتنق ثقافة غريبة، عليه أن يعبر عنها باللغة نفسها التي هو مضطر إلى استخدامها».

لقد كان سيسر بايخو «تشولو»، أي مُولداً تجري في عروقه دماء إسبانية وهندية، وهو من منشأ ريفي، ولد في قرية سنتياغو دي تشوكو التي تبعد عن مدينة تروخييو، على حدّ قوله، «عدة ساعات على متن بغل». وهو فوق ذلك الابن الحادي عشر والأخير لأسرة

متواضعة، ولكنها أسرة متضامنة و متمسكة بقوة بالقيم التقليدية، إلا أن موت أمه وأخيه الكبير ميغيل أدى إلى قطع جذوره وقطع الروابط التي كانت تربطه بالمنزل والأسرة.

في بداية عام 1918 يسافر إلى العاصمة ليما، وينشر بعض قصائده في مجلات العاصمة، وفي نهاية العام نفسه يظهر كتابه الشعري الأول «**النذر السود**». وبالرغم من أن الكتاب يحمل بصمات تيار الحدائة الأمريكي اللاتيني آنذاك، إلا أن بايخو يتكشف فيه عن شاعر مختلف. وقد وفر له هذا الكتاب الشهرة، وراحت سمعته الأدبية تتعاظم، ولاسيما بعد الدراسة العميقة التي نشرها عنه المفكر اللامع والمناضل الاجتماعي (مؤسس الحزب الاشتراكي البيرووي) خوسيه كارلوس مارياتيغي محيياً فيها عبقريته الفنية.

في شهر أكتوبر (تشرين الأول) 1922 ظهر ديوانه الثاني «**تريليثي**»، وعنوان الكتاب نفسه يقدم لنا قاعدة أولية لكيفية فهمه. فكلمة تريليثي¹ هي كلمة جديدة تماماً، من اختراع المؤلف نفسه، وليس لها أي دلالة موضوعية محددة، ولكنها في الوقت نفسه كلمة إيقاعية رنانة. أما القاعدة الثانية فهي عدم وجود عناوين للقصائد، إذ إنها تتوالى مسبوقه بأرقام رومانية وحسب. وكأن الشاعر لم يشأ وضع عناوين لها كي لا يوجه اهتمام القارئ إلى بؤرة محددة، أو رؤية معينة، أو نقطة استناد أولية. ومع أننا نجد صعوبة في الوصول إلى تحديد عقلائي لمضمون عالم القصائد، إلا أننا نتمثل بصفاء المعاشات التي أراد الشاعر نقلها إلينا. فهو يتوصل إلى خصوصية عالية وأصيلة في التعبير، مستفيداً من كل منجزات عصره الأدبية، وخاصة المنولوج الداخلي وثورة علوم النحو، كي يتكلم عن طفولته أو عن حياة المنزل والأسرة. ولكن هذا الكتاب الذي قوبل بعدم مبالاة لدى صدوره، صار أحد الأعمال المفصلية في الشعر الأمريكي اللاتيني المعاصر.

وعلى الرغم من الظروف المادية السيئة التي كان يعيشها الشاعر، فقد تمكن من شراء بطاقة سفر بالسفينة إلى فرنسا، وغادر البيرو فعلاً في 17 يونيو (حزيران) في رحلة لن يعود منها إلى وطنه أبداً. لكن المصاعب الاقتصادية تلاحقه في فرنسا، ويصاب بمرض خطير، وتُجرى له عملية جراحية، إلا أنه يبدأ منذ عام 1925 بكتابة مقالات صحفية عن

الحياة الفنية واليومية الباريسية لبعض صحف البيرو. وفي عام 1928 يسافر إلى الاتحاد السوفييتي وفي نيته الاستقرار هناك، ولكنه يرجع إلى باريس ويتزوج من جورجيت فيليب. ويظهر توجهه السياسي الجديد والتزامه النضالي في مجموعة مقالات كتبها حول رحلته إلى الاتحاد السوفييتي. وفي عام 1930 يُطرد من فرنسا بسبب نشاطه السياسي، فيستقر في مدريد لبعض الوقت. ويكتب في أثناء ذلك (عام 1931) رواية «**تونغستين**» وهو كتاب شديد المرارة، يهيمن عليه التزامه الثوري، ويعرض فيه حياة وبؤس عمال المناجم في البيرو. وينضم في السنة نفسها إلى الحزب الشيوعي الإسباني، ويتم في أثناء وجوده في مدريد إعلان الجمهورية الإسبانية في 14 ابريل (نيسان) 1931. ولكنه لا يلبث أن يعود إلى فرنسا مع زوجته ويرتب إقامته فيها بصورة شرعية.

لقد كان للحرب الأهلية الإسبانية التي اندلعت في يوليو (تموز) 1936 تأثير عميق على الشاعر. فمأساة إراقة دماء الأخوة شكّلت صدمة عنيفة للشاعر، أيقظت فيه مشاعر تضامن مندفعة مع الشعب الإسباني وقضية الجمهورية، ووجدت تلك المشاعر تعبيراً عنها في كتاب «**إسبانيا، أبعدني هذه الكأس**» وهو أهم عمل شعري تناول الحرب الأهلية الإسبانية، وربما كان أعمق ما أنتجه الشعر الملتزم في إسبانيا وأمريكا اللاتينية على الإطلاق.

في مارس (آذار) 1938 يصاب الشاعر بمرض غامض، ويموت محموراً في العاصمة الفرنسية في 15 ابريل (نيسان) 1938. وفي شهر يوليو (تموز) 1939، تطبع زوجته في باريس كتاب «**قصائد إنسانية**» وتضمنه الأشعار وقصائد النثر التي كتبها بايخو منذ عام 1923.

في القصائد الإنسانية يضيف بايخو إلى إنجازاته الطليعية الفنية، رؤية كونية للألم الإنساني؛ فعالمه يزداد مرارة، ويتحول الحنين إلى الأماكن والأشياء العائلية إلى سرّ طلسمي، تؤرقه التساؤلات عن مغزى هذه الحياة. ومما يضاعف من مأساوية القصائد أن قسماً كبيراً منها كُتبت في أيام البؤس والمرض، وتحت وطأة مأساة الحرب الأهلية

الإسبانية، فجاءت مفعمة بالقيم الروحية والإلحاح على التضامن الإنساني، لأن الآلام والشور هائلة، وليس الإنسان هو الذي يكبر ويتعاضم وإنما التعاسة والبؤس والألم. لقد شيّد بايخو في قصائده الإنسانية ملحمة الألم اليومي للإنسان، فحق ما قيل في هذا الكتاب من أنه يمثل في الشعر ما مثلته التكميلية في الرسم، وأن بايخو مثله مثل بيكاسو، عرف في حياته كيف يكون كلاسيكياً من أفضل الكلاسيكيين.

حجر أسود فوق حجر أبيض²(1)

سَامُوْثُ فِي بَارِيْسَ تَحْتِ وَاِبْلِ مِنْ الْمَطْرِ،

فِي يَوْمٍ لَدِيٍّ مِنْذُ الْآنَ ذَكَرِي عَنْهُ

سَامُوْثُ فِي بَارِيْسَ - وَلَسْتُ مُسْتَعِجِلاً -

رَبِّمَا فِي يَوْمِ خَمِيْسٍ خَرِيْفِي، مِثْلِ هَذَا الْيَوْمِ.

سَيَكُوْنُ خَمِيْسًا لِأَنَّ هَذَا الْيَوْمَ خَمِيْسٌ، وَفِيهِ أَنْثَرُ

هَذِهِ الْأَشْعَارَ، وَعِظَامُ الْعَضْدِ فِي أَسْوَأِ

حَالٍ، وَلَمْ أَرَ نَفْسِي قَطَّ

وَحِيْدًا مِثْلَمَا أَنَا الْيَوْمِ.

سَيَسِرُ بَايِيخُو قَدْ مَاتَ، وَهُمْ جَمِيْعًا يَرْكَلُوْنَهُ

دُونَ أَنْ يَفْعَلَ لَهُمْ أَيُّ شَيْءٍ؛

يَضْرِبُوْنَهُ بِالْهَرَاوِي وَيَقْسُوْةَ.

بِالْحَبَالِ يَسُوْطُوْنَهُ؛ تَشْهَدُ عَلَى ذَلِكَ

أَيَّامُ الْخَمِيْسِ وَعِظَامُ الْعَضْدِ،

وَالْعُزْلَةُ وَالْأَمْطَارُ وَالْدُرُوبُ...

قصيدة للقراءة والغناء

أعرفُ أنّ هناك شخصاً

يبحثُ عنيّ في يده، ليلاً نهار،

ويجدني كلّ لحظة في جذائه،

هل يجهلُ أنّ الليلَ مدفونٌ

بمهاميزٍ وراءَ المطبخ؟

أعرفُ أنّ هناك شخصاً مُركّباً من أجزاءي،

أتكاملُ معه عندما تمضي قامتي

مُمتطيّةً حَجَرَهَا.

هل يجهلُ أنّ قطعةً نقدٍ تحملُ صورتهُ

لن ترجعَ إلى صندوقه إذا خرجت منه؟

أعرفُ اليومَ الموعدَ،

ولكنَّ الشَّمْسَ هربتُ مني؛

أعرفُ العملَ الكونيّ الذي عمّله في فراشه

بشجاعةٍ آخرين، وهذا الماءُ الفاترُ منجمٌ

في تموجه السطحي.

أهو ضئيلٌ جداً هذا الشخص،

لكي تدوسه أقدامه؟

هرُّ صغيرٌ هو الحدُّ بيني وبينه،

إلى جوار كأس مائه بالصَّبْط.

أراه في الزوايا، ملايسه تفتح وتغلق،

مثل نخلة استفهامية...

ما الذي يمكنه عمله سوى الاستعاضة عن البكاء؟

لكنه يبحث ويبحث عني. يا لها من قصة!

أشعرُ بالبردِ من الحرِّ الخالص

من الحرِّ الخالصِ أشعرُ بالبرد،

أيتها «الغيرة» الأخت!

أسودُّ تلحسُ ظلي

والجرْدُ يقرضُ اسمي،

أماه يا روجي!

على شفير الهاوية أمضي،

أيها «الهوان» الصّهر!

اليرقة تعزف صوته،

والصوت يعزف يرقته،

أبتاه يا جسدي!

حبي في مواجهتي،

أيثها «الحمامة» الحفيدة!

من رُكبتين رُعي

ومن رأس وجداني،

أماه يا روعي!

حتى يوم لا ثاني له،

أيثها «الرمس» الزوجة!

نصلي الحديدي الأخير يُطلق صوت

أفعى نائمة،

أبتاه يا جسدي...!

زلزال

أإذا تَحَدَّثْتُ عن الحَطَبِ، هل أُسَكِّتُ النَّارَ؟

أإذا كُنستُ الأَرْضَ، هل أنسى حيواناتها المُتَحَجِّرة؟

أإذا فكرتُ بِعَقْلانِيَّةٍ، ...

جديلتي، وتاجي اللَّحْمي؟

(أجب، يا حبيبي هيرميربخيلدو الفظ؛

يسأل لويس البليد!)

الكلُّ، الجزء!

أزيتُ جوري بنور في العماء،

وبمجازفةٍ، أزيثُ سلامَ هذا الخَطِرِ العَظيمِ،

ونيازكي، بالعسلِ المُتمَعِّنِ فيه،

وجَسدي، بعسلِ مأسوفٍ عليه.

أكتوبر 1937

قُبعة، معطف، قفازان

قُبالة مَسْرِحِ الكوميدي فرانسيز، هُنالك مقهى

ريجنت؛ وفيه حُجرة

عَميقة، فيها أريكةٌ ومنضدة.

عندما أدخل، ينهض الغبار الراكد واقفاً.

بين شفتي المصنوعتين من مطاط،

تطلق جذوة اللفافة دخاناً. وفي الدخان

يُرى دخانان مُكثَّفان..

إنه القفص الصدري للمقهى،

وفي القفص الصدري، صدأ حزن عميق.

لا بد للخريف أن يترصع بأخرقة،

لا بد للخريف من أن يكتمل بالبراعم،

كما الغيمة بأنصاف السنوات؛ والتجعيدة بالوجنات.

لا بد من رائحة جنون متطلب

يا لسخونة الثلج، يا لسرعة السلحفاة،

وكم هي بسيطة «كيف»، وكم هي صاعقة «متى»!

حذة وارتفاع

أريد أن أكتب، فيخرج مني زبد،

أريد أن أقول الكثير فأختنق؛

لا وجود لرقم منطوق لا يكون جمعاً.

لا وجودَ لهَرِمٍ مَكْتُوبٍ دُونَ لُبِّ.

أرِيدُ أَنْ أَكْتُبَ، لَكِنِّي أَشْعُرُ بِأَنَّي أَسَدٌ بَوْمَا؛

أرِيدُ أَنْ أَكَلَّ نَفْسِي بِالْغَارِ، لَكِنِّي أَكَلَّ نَفْسِي بِالْبَصَلِ.

لا يَوجَدُ سَعَالٌ مَنْطُوقٌ إِلَّا وَيَتَحَوَّلُ إِلَى ضَبَابٍ،

لا يَوجَدُ إِلَهٌ وَلَا ابْنُ إِلَهٍ دُونَ تَطُورِ.

هَلِّمُوا بِنَا إِنْ نَأْكُلُ عُشْبًا،

نَأْكُلُ لَحْمَ الْبُكَاءِ.. ثَمَرَةَ النَّحِيبِ،

نَأْكُلُ رُوحَنَا الْكَيْبَةَ الْمَعْلَبَةَ.

هَلِّمُوا بِنَا! هَلِّمُوا بِنَا! إِنِّي جَرِيحٌ؛

هَلِّمُوا بِنَا لِنَشْرَبَ مَا هُوَ مَشْرُوبٌ،

هَلِّمُوا بِنَا يَا غُرَابَ لِنُخْصِبَ غُرَابِيَّتَكَ.

27 أكتوبر 1937

حتى يوم عودتي

حتَّى اليَومِ الَّذِي أَعُودُ فِيهِ، مِنْ هَذَا الْحِجْرِ

سَيُولَدُ عَقْبُ قَدَمِي النَّهَائِي،

بِلَعْبَةِ جِرَائِمِهِ، بِلَبْلَابِهِ،

بإصراره الفاجع، بزيتونه.

حتى اليوم الذي أعود فيه، متابعاً

رحلتي، من بئر إلى بئر،

باستقامتي الصريحة كأعرج مريدٍ، وأفهم مع ذلك

أن الإنسان يجب أن يكون طيباً.

حتى اليوم الذي أعود فيه ويمشي

الحيوان الذي هو أنا، بين قضاته،

سيكون خنصرنا الباسل كبيراً،

وقوراً.. سيكون إصبعاً غير متناهٍ بين الأصابع.

تحية ملائكية

سلافي حين يُقارنُ بالنخلة،

ألمانيٍّ بوجهٍ إلى الشمس، إنكليزيٍّ غير متناهٍ،

فرنسيٍّ على موعد مع الحلزونات،

إيطاليٍّ مع سبق الإضرار، اسكنديناويٍّ الهواء،

إسبانيٍّ نقي البهيمية، كما السماء

مغروساً في الأرض بالرياح،

مثل قُبلةِ الحَدِّ على الكَتِفينِ.

ولكنَّكَ أنتَ وحدَكَ مَنْ تَظْهَرُ، هابِطاً

أو صاعِداً من الصِّدرِ، أيُّها الرِّفيقُ،

ملامحُكَ المشوِّشةُ،

إيماءاتُكَ الزَّوجيةُ،

وجهُكَ الأبويُّ،

ساقاكِ.. ساقا الحَبيبِ،

بَشَرَتُكَ عبْرَ الهاتفِ،

رُوحُكَ العَموديةُ

على رُوحِي،

مِرْفَقاكِ.. مِرْفَقا العادِلِ

وجوازِ سفرِي على بياضِ في ابتسامتِكَ.

عندما نَتَوَقَّفُ، تعملُ من أجلِ الإنسانِ،

وتَقْتُلُ، أنتِ، على امتدادِ موتِكَ

وعلى عَرَضِ العناقِ الصِّحيِّ،

رأيتُ أنَ عشباً قد نما في اسمِكَ

إنني أرغب في

دفيك المذهبي.. بارداً ومسبوكاً،

أفضلُ طريقَتك في النَّظرِ إلينا

وخطوتك المعدنية.

خطوتك هذه التي من حياةٍ أُخرى.

وأقول، أيُّها الرِّفيق، مُتناولاً هذا الوهنَ

في أصالته الصَّارية بعبقها الأرضي:

إنني ابنٌ للخير والشرِّ

وربِّما أعيشُ في غُرورٍ - مهما قالوا -

لكنَّ قاماتك المتزامنة...

تثيرُ في نفسي أسيَّ عظيمًا،

لأنك لا تجهلُ لمن يضيعُ مني الوقتُ يومياً،

ولمن أنا صامتٌ ونصفُ أعورٍ.

رسالة إلى العابرين

أستأنفُ نَهاري الأرنبيَّ

وليلي.. ليلَ الفيلِ المُستريحِ

وأقول بيني وبين نفسي:

متدفقاً هذا هو اتساعي الخام.

هذا هو ثِقَلِي المَفْرِحُ الذي بحثَ عَنِّي، من تحت، كعصفور؛

هذا هو سَاعدي

وقد أبى على مسؤوليته أن يكونَ جَنَاحاً

هذه هي كتاباتي المقدّسة،

وهؤلاء هم رفاقي المتأهبون.

جزيرةٌ كئيبةٌ تُضيئني ككائن قارّي،

بينما الكابيتول يستندُ إلى انهيارِي الحميم

وتختتمُ الجمعيّةُ استعراضِي برماحها المُشرعة.

ولكن عندما أموتُ

حياةٌ وليسَ زَمناً،

عندما تُصبحُ حقيبتاي الاثنتان اثنتين،

ستكونُ تلك هي معدتي التي اتسعتُ لمصباحي المفتت،

وسيكونُ هذا هو الرأسُ الذي دفعَ ثمنَ عذاباتِ الدائرةِ في خُطواتي،

وهذه هي الديدانُ التي أحصاها القلبُ بالوحيدات،

سيكونُ هذا هوَ جَسدي المُتضامنُ
تسهَرُ عليه الروحُ الفرديَّةُ؛ ستكونُ هذهِ
هي سُرَّتِي التي قَتَلْتُ فيها قَملي الوليدِ
وهذا هوَ شيءي، شيءي... شيءي المُخيفِ.

وفي أثناء ذلك، يتماثلُ مِكبَّحي

المتشجُّ الفُظُّ للشِّفاءِ،

مُعانياً مثلما أعاني من لُعةِ الأسودِ المُباشرةِ؛
ولأنني وُجِدْتُ بينَ سُلطتينِ من طينِ مَفخورِ،
فإنني أتماثلُ للشِّفاءِ، مُبتَسِماً من شَفَتِي فَقَطِ.

رجل يمرّ حاملاً رغيّف خبز على كتفه

رجلٌ يمرُّ حاملاً رغيّف خُبزٍ على كَتِفِهِ

فهل سأكتبُ بعد ذلك عن صنوي؟

آخرُ يجلسُ، يحكُّ، ويُخرجُ قملةً من إبطه.. يقتلها

فما قيمةُ الحديثِ عن التَّحليلِ النفسيِّ؟

آخرُ يفتحُ صَدري وفي يدهِ عصا

فهل يُمكنُ التحدُّثُ بعدَ ذلكَ عن سُقراطِ إلى الطَّبيبِ؟

أَعْرَجُ يَمْرُ مَادًّا ذِرَاعَهُ إِلَى طِفْلٍ

فَهَلْ سَأَقْرَأُ بَعْدَ ذَلِكَ أَنْدَرِيهَ بَرِيْتُونَ؟

آخِرُ يِرْتَعِشُ مِنَ الْبَرْدِ، يَسْعُلُ، يَبْصُقُ دَمًا

فَهَلْ يُجِدِي التَّلْمِيحُ إِلَى الْأَنَا الْعَمِيقِ؟

آخِرُ يَبْحَثُ فِي الْوَحْلِ عَنِ عِظَامٍ وَقُشُورٍ

فَكَيْفَ نَكْتُبُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ اللَّانْهَائِيَّةِ؟

بِنَاءً يَسْقُطُ مِنْ أَعْلَى سَطْحٍ، وَيَمُوتُ دُونَ تَنَاوُلِ الْغَدَاءِ

هَلْ سَنَبْتَكُرُ بَعْدَ ذَلِكَ الْاسْتِعَارَةَ وَالْمَجَازَ؟

تَاجِرٌ يَخْتَلِسُ غَرَامًا وَهُوَ يَكِيلُ لِلزَّبُونِ

أَيُمْكِنُ التَّحَدُّثُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ الْبُعْدِ الرَّابِعِ؟

مَصْرِفِي يَزُورُ مِيزَانِيَّتَهُ

فَبَأَيِّ وَجْهِ يُمْكِنُ الْبُكَاءُ فِي الْمَسْرَحِ؟

مَنْبُوذٌ يَنَامُ وَقَدَمُهُ عَلَى ظَهْرِهِ

أَيُمْكِنُ التَّحَدُّثُ بَعْدَ ذَلِكَ عَنِ بِيكاسو إِلَى أَحَدٍ؟

أَحَدُهُمْ يَمْضِي مُنْتَجِبًا فِي جَنَازَةِ

كَيْفَ يُمْكِنُ الْاِلْتِحَاقُ بَعْدُنَا بِالْأَكَادِيمِيَّةِ؟

أحدُهم يَنْظُفُ بندقيةً في مطبخه

فما قيمة الحديثِ عن الغيبِ؟

أحدُهم يمرُّ حاسباً على أصابعه

فكيف يمكنُ التحدثُ عن اللا - أنا دونَ صُراخٍ؟

رجل ينظر إلى امرأة

رجلٌ ينظرُ إلى امرأة،

يَنْظُرُ مباشرةً.

بدائه.. داءُ الثرابِ الفَاحِرِ.

ينظرُ إليها بيدين

ويطرُحُها بصدريين

ويُحَرِّكُها بكتفين.

أتساءلُ عندئذٍ، بينما تُثَقِّلُ عليّ

الضَّلَعُ الهائلة، البيضاء، المُغالية:

وهذا الرَّجُلُ،

ألم يكن له طفلٌ يراهُ أباً نامياً؟

ألم يكن للمرأة، طفلٌ

بانِ لجنسها الجليّ؟

الطفلُ أراه الآن،

طفلاً «أمّ أربع وأربعين»، متحمساً، نشيطاً؛

أرى أنهما لا يريانهُ

ينفُ بين الاثنين.. يتَمَلَلُ.. يلبسُ؛

وَأَتَقَبَّلُهُمَا:

هي بشرطها التكاثريّ؛

وهو في انحناءِ الهشيمِ الأشقرِ.

وأهتفُ عندئذ، دونَ أن يتوقفَ أحدٌ

عن العيش، ودون أن يلتفتَ أحدٌ

ليرتعش في المُبارزةِ التي أُوقِرُها:

سعادةٌ تاليةٌ متأخرةٌ

للأبِ

والابنِ والأمّ!

برهنةٌ مُدَوّرة،

أُسرِيّةٌ، لم يعد يحسُّ بها أو يُحبُّها أحد!

من أي انبهارٍ صامتٍ، مُخَضَّبٍ،

يَتَحَقَّقُ نَشِيدُ الْإِنْشَادِ!

ومن أي جذعٍ، يتحقَّقُ النَّجَارُ الْمُزْهَرُ!

من أي إبطٍ تامٍ، هذا المجداف الهش!

من أيِّ حافرٍ، هذان الحافران الأماميان!

نوفمبر 1937

كان يوم أحدٍ في الأذنين الصافيتين

كانَ يومَ أحدٍ في أذنيِّ حماري الصَّافيتين،

حماري البيرونيُّ في البيرو (عذراً للحنن).

وهي اليوم.. الحادية عشرة في تجربتي الشخصية،

تجربة عينٍ واحدةٍ مغروسةٍ في مُنتصفِ الصَّدر،

حركة حماريَّةٍ واحدةٍ، مغروسةٍ في مُنتصفِ الصَّدر،

مذبحة جماعيةٍ واحدةٍ، مغروسةٍ في مُنتصفِ الصَّدر.

هكذا أرى جبالَ بلادي المُصوِّرة، اليوم

غنيَّة بالحمير، أبناء الحمير، آباء النظر،

بينما تنقلبُ جبالَ آلامي الأفقية،

مُلونَةٌ بِمُعْتَقَدَاتِهَا.

فِي تَمَثَالِهِ ذِي السَّيْفِ،

يَمْسُكُ فُولْتِيرَ عِبَاءَتِهِ وَيَنْظُرُ إِلَى إِفْرِيزِ الْقَاعَةِ،

لَكِنَّ الشَّمْسَ تَتَوَعَّلُ فِيَّ وَتُطِيحُ بِأَسْنَانِي الْقَوَاطِعِ

وَعَدِدِ مَتَزَايِدِ مِنْ أَجْسَادٍ غَيْرِ عَضْوِيَّةِ.

عِنْدئِذٍ أَحْلَمُ بِحَجَرٍ مُخْضُوضِ،

إِنَّهَا السَّابِعَةُ عَشْرَةَ،

صَخْرَةٌ عَدِيدَةٌ كُنْتُ قَدْ نَسِيْتُهَا،

صَوْتُ سِنَوَاتٍ فِي هَمْسِ إِبْرَةِ ذِرَاعِي،

مَطَرٌ وَشَمْسٌ فِي أَوْرُوبَا.. كَمْ أَسْعَلُ! كَمْ أَحْيَا!

كَمْ يُوَلِّمُنِي شَعْرِي حِينَ أَلْمَحُ الْعُصُورَ الْأَسْبُوعِيَّةِ!

وَكَمْ تُوَلِّمُنِي، فِي مُنْعَطَفِ، دُورَتِي المِيكَرُوبِيَّةِ،

أَعْنِي تَسْرِيحَتِي الوَطَنِيَّةِ المُرْتَعِشَةِ.

اليوم تروق لي الحياة أقل بكثير

اليوم تروق لي الحياة أقل بكثير،

لَكِنِّي أَحِبُّ العَيْشَ دَائِمًا: وَهَذَا مَا قَلْتُهُ مِنْ قَبْلُ.

لمسْتُ جُزءَ كُليّتي تَقريباً وتوقفتُ

برمية في لساني وراء الكلمة.

اليومَ أَلْمُسُ دَقَنِي المُتراجعة

وأقولُ في هذا البنطال الآني:

حياةٌ مديدة وأبداً!

سنواتٌ كثيرةٌ وأسابيعي على الدوام...!

أبوايَ المذفونانِ مع حَجَرِهِما

واستلقاؤهما الحزينَ الذي لم يَنْتَه؛

بكامل الجسدِ أيُّها الإخوة، يا إخوتي،

وأخيراً، شخصيَ المنتصبُ بصدريّة.

تروقُ لي الحياةُ بصورةٍ هائلة،

ولكنني، بكل تأكيد،

سأبقى مع موتي وقهوتي

ناظراً إلى أشجارِ كستناءِ باريسِ الوارفة

وقائلاً:

هذه عينٌ هنا.. تلك؛ وجبهةٌ هذه.. تلك... ومكرراً:

حياة كثيرة ولم تخذلني اللهجة قط!

سنوات كثيرة ودوماً.. دوماً.. دوماً!

قلتُ سترةً، قلتُ

الكلُّ، الجزء، اللهفة.. قلتُ تقريباً، كيلاً أبكي.

صحيحٌ أنني عانيتُ في ذلك المشفى المُجاور

وحسنٌ أو سيئٌ أني نظرت

إلى جسدي من أسفل إلى أعلى.

يروقُّ لي أن أعيش دوماً، ولو حتى بكرش،

لأنني، مثلما قلتُ وأكرر،

حياةً مديدةً وأبداً! وسنوات كثيرة،

وعلى الدوم، على الدوم كثيراً، على الدوم!

ثقة بالمنظار وليس بالعينين

ثقةً بالمنظار، وليس بالعينين؛

بالسُّلم، وليس بدرجة السُّلم؛

بالجنّاح، وليس بالطائر

وبك أنت وحدك، وبك وحدك، بك وحدك.

ثِقَّةٌ بِالشَّرِّ، وَلَيْسَ بِالشَّرِّيرِ؛

بِالكَأْسِ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالشَّرَابِ أَبَدًا؛

بِالْجَنَّةِ، وَلَيْسَ بِالْإِنْسَانِ

وَبِكَ أَنْتَ وَحَدَاكَ، بِكَ وَحَدَاكَ، بِكَ وَحَدَاكَ.

ثِقَّةٌ بِالكَثْرَةِ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِوَاحِدٍ وَحَدَهُ؛

بِالمَجْرَى، وَلَيْسَ بِالتَّيَّارِ؛

بِالسَّرَاوِيلِ، وَلَيْسَ بِالسِّيْقَانِ

وَبِكَ أَنْتَ وَحَدَاكَ، بِكَ وَحَدَاكَ، بِكَ وَحَدَاكَ.

ثِقَّةٌ بِالتَّافِذَةِ، وَلَيْسَ بِالبَابِ؛

بِالْأَمِّ، وَلَكِنْ لَيْسَ بِالشُّهُورِ التِّسْعَةِ؛

بِالقَدْرِ، وَلَيْسَ بِالنَّرْدِ الذَّهَبِيِّ،

وَبِكَ أَنْتَ وَحَدَاكَ، بِكَ وَحَدَاكَ، بِكَ وَحَدَاكَ.

أكتوبر 1937

المُسُوخُ التِّسْعَةُ

ويا لِسُوءِ الحِطِّ -

الألم ينمو في الدنيا كل لحظة،

ينمو بسرعة ثلاثين دقيقة في الثانية، خطوةً خطوةً،

وطبيعة الألم هي الألم مرتين

وشرط العذاب الجارح الشره،

هو العذاب مرتين

ووظيفة العُشبة الطاهرة، هي العذاب...

مرتين

واكتمال الرفاه، هو ألمنا مضاعفاً.

لم يكن موجوداً قط أيها البشر الإنسانيون،

كل هذا الألم في الصدر.. في الياقة.. في المحفظة..

في الكأس.. في محل الجزار.. في علم الحساب!

لم يكن هنالك قط كل هذا الحنان المؤلم،

وقط لم يهاجم البعيد عن مثل هذا القرب،

والنارُ أبداً ومطلقاً

لم تؤد دورها أفضل.. دور البرد الميت!

مطلقاً، أيها السيد وزير الصحة، لم تكن الصحة قط

أشدَّ فناءً

ولم يُخرج الصُّداع قُطَّ كلِّ هذه الجبهةِ من الجبهةِ!

ولم يُصَبِّ الأثاثُ، في دُرْجِه، بالألمِ،

والقلْبُ، في دُرْجِه، بالألمِ،

والضَّبُّ، في دُرْجِه، بالألمِ.

تَنمو التعاسَةُ أيُّها الأخوةُ البشرِ،

أسرَعَ من الآلةِ، أسرَعَ من عشرِ آلاتٍ.. وتكبرُ

مع رأسِ ماشيةٍ «روسو»، مع لحانا؛

ينمو الشَّرُّ لأسبابٍ نجهلُها

فيضاناً له سوائلهُ الخاصَّةُ،

ووحولُه الخاصَّةُ، وسحابةُ جامدةٍ خاصَّة!

يقلْبُ الألمُ أوضاعاً، يجعلُ

سائلَ العينِ الزُّجاجي شاقولياً

على البلاطِ،

والعينَ مرئيةً.. وهذه الأذنُ مسموعةُ،

وهذه الأذنُ تَقْرَعُ تسعةَ أجراسٍ في ساعةٍ

صاعقة، وتسعَ قهقهات

في ساعة الخبز، وتسعَ نغمات مؤنثة

في ساعة النَّحيب، وتسعةَ أناشيد

في ساعة الجوع، وتسعةَ رعود

وتسعةَ سياطٍ إلا صرخةً واحدة.

الألمُ يمسكُ بنا أيُّها الأخوةُ البشر،

من الخلف.. من الجانب،

ويُجَنِّنا في دُورِ السِّينما،

يسمّرنا على الجراموفونات،

يقتلعنا من الفراش.. يسقطُ عمودياً

على بطاقتنا.. على رسائلنا؛

وكمْ هو خطيرٌ تألّمنّا، يمكن لأحدنا أن يصلي...

ولكن،

هناك أناسٌ يولدون،

وآخرونَ ينمونَ، وآخرونَ يموتونَ،

وآخرونَ لا يموتونَ ولا يولدونَ (وهم الأكثرية).

ونتيجة الألم أيضاً

سأكونُ حزيناً

حتى الرأس، وأشدَّ حزناً حتى الكَّاحِلِ،

من رؤية الخبزِ مصلوباً، والفجرِ..

نازفاً،

والبصلةِ باكية،

والمِلحِ مسحوقاً إلى فُتات، والماءِ هارباً،

والنبيذِ خلاً معذباً،

والثلجِ شديدِ الشُّحوب، والشمسِ شديدة الوهج!

كيفَ أيُّها الإخوةُ البشر،

لا أقولُ لكم إنني لم أعد أقدرُ و..

لم أعد أتحمّلُ كلَّ هذه الأدرج،

وكلَّ هذه الدقيقة، وكلَّ هذا

الصَّب، وكلَّ هذا البعد وكلَّ هذا العطش من العطش!

أيُّها السيّدُ وزير الصحة: ما العمل؟

آه! يا لسوءِ الحظ أيُّها الإخوةُ البشر،

هناك يا إخوتي الكثير مما يجب عمله.

نوفمبر 1937

تراودني في بعض الأيام

تراودني في بعض الأيام رغبةً سياسيةً جامحة،

في أن أحبَّ.. أن أُقبَلَ الحبيب من وجهيه،

وتأتيني من بعيدٍ رغبةً

بيّنة، ورغبةً أخرى في أن أحبَّ - طوعاً أو عنوة -

من يكرهني.. من يُمزّق ورقة الغلام الصّغير،

من تبكي على من كان يبكي،

أن أحبَّ ملكَ النبيذ.. عبدَ الماء،

من يختبئ في ضحكته،

من يتعرّق، من يمرّ عابراً، من يهزُّ شخصه في روجي.

وأريد، مع ذلك، أن أريحَ صّفيرةَ شعرٍ

من يُكلّمني، أن أريحَ شعرَ الجندي،

وأن أريحَ للكبير نوره، وللصغير عَظْمته.

أريدُ أن أكوي مباشرة

منديلاً لمن لا يقدرُ على البكاء،

وحين أكون حزيناً أو حين تؤلمني السعادة،

أريدُ أن أرقع الأطفال والجان.

أريد أن أساعدَ الطيبَ لأكونَ حُبَّته القليل

وأتعجلَ الجلوسَ

إلى يمين الأعرس والردِّ على الأبكم،

محاوِلاً أن أكونَ نافعاً له

ضمنَ طاقتي،

وأرغبُ بشدةٍ أيضاً

في أن أغسلَ قدم الأعرج،

وأن أساعدَ الأعورَ التالي على النوم.

آه للرجبة.. رغبتي، هذه، العالمية،

الإنسانية والأسقفية الرَّعوية الهرمة!

تأتيني حاسرةً،

مندفعةً من الأساس، من أصلِ الفخذ العامة،

وفيما هي آتيةٌ من بعيد، تثير الرغبةَ في تقبيل

لفاع المغني،

وتقبيل المعذب من عذابه،

والأصم من حفيفه الجُمجمي الثابت؛

ومَنْ يُعطيني ما نسيته في داخلي،

من دانتِيه، من شابِلينه، من كتفيه.

وأريدُ أخيراً،

حينَ أكونُ على حافة العُنف الشهيرة

أو حين يمتلئُ بالصدْرِ القلبُ،

أريدُ

أن أساعدَ من يبتسمُ على الضحك،

وأن أضعَ للشيرير عصفوراً على أم رقبته،

وأن أرعى المرضى مثيراً غضبهم،

وأن أشتري من البائع،

وأساعدَ القاتلَ على القتل - شيءٌ فظيع -

وأريدُ أن أكونَ طيباً مع نفسي

في كلِّ شيء.

6 نوفمبر 1937

أخطر لحظة في الحياة

قال رجل:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حَرَجاً كانت في معركةِ «المارن»،

عندما أصبْتُ بجرحٍ في صدري.

رجلٌ آخرُ قال:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حَرَجاً، كانت في زلزالٍ بحري

في يوكوهاما، ونجوتُ منهُ بأعجوبة،

مختبئاً تحت حافةِ خيمةٍ من اللِّك.

ورجلٌ آخرُ قال:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حَرَجاً تحدُّ حينَ أنامُ نهاراً.

وقالَ آخرُ:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حَرَجاً كانت في وِحدتي الكبيرة.

وقالَ آخرُ:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حَرَجاً كانت في أحدِ سجونِ البيرو.³⁽¹⁾

وقالَ آخرُ:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حَرَجاً هي مواجھتي لأبي جانبياً.

والرجلُ الأخيرُ قال:

- أشدُّ لحظاتِ حياتي حرجاً لم تأت بعد.

عجلة الجائع

أخرج من بين أسناني والدخان يتصاعد مني،

صراخاً، مجاهداً،

منزلاً سروالي...

خاوية معدتي، خاوية أمعائي الدقيقة

يسحبني البؤس من بين أسناني،

ويسمرني قضيبٌ من معصمِ القميص.

أريدُ حَجراً أجلسُ عليه

ألا من حَجَر لي الآن؟

ولو ذاك الحجرُ الذي تحبُّ به المرأة الولود،

أم الخروف⁴⁽¹⁾، العلة، الأصل،

أليس موجوداً من أجلي الآن؟

أو ذاك الحجرُ الآخر،

الذي مرّ منحنياً عَبَرَ رُوحِي!

أو حتى

ذاك الكلسيِّ، أو السيِّءُ (أقيانوس بائس)

أو ذاك الذي لم يعد ينفع لرمي الإنسان به،

أعطني إياه الآن!

أو ذلك الحجرُ الذي يجدونه مُخْتَرَقاً ووحيداً في شتيمة،

أعطني إياه الآن!

حتى الملتوي والمتوجُّ الذي ترنُّ فيه

مرةً واحدةً فقط مسيرة الضمائر السّوية،

أو على الأقل ذلك الحجر الآخر الذي يُلقى بانحناءٍ وقورة،

ليسقط من تلقاء نفسه،

في مهمّةٍ داخليةٍ حقيقية،

هذا الحجر، أعطني إياه الآن!

ألا تُوجد أيضاً كِسرةً خبز لي الآن؟

لن أكونَ ما سأكونه على الدّوام

ولكن أعطني

حَجْرًا أَجْلَسُ عَلَيْهِ،

أَعْطِنِي

أَرْجُوكَ، كِسْرَةَ خُبْزٍ أَجْلَسُ عَلَيْهَا،

أَعْطِنِي

- بِالْإِسْبَانِيَّةِ -

شَيْئًا، بِاخْتِصَارِ، أَشْرِبُهُ، آكَلَهُ، أَعِيشُهُ، لِأَسْتَرِيحَ،

وَبَعْدَهَا سَأُغَادِرُ...

سَاجِدٌ طَرِيقَةً غَرِيبَةً، فَقَمِيصِي مَمْرُقٌ جَدًّا

وَمَتَّسَخٌ

وَلَيْسَ لَدَيَّ شَيْءٌ. يَا لِلْأَمْرِ الْمَرِيعِ.

مَا الَّذِي أَصَابَنِي، لِأَجْلَدَ نَفْسِي

مَا الَّذِي أَصَابَنِي لِأَجْلَدَ نَفْسِي بِالسَّطْرِ

وَأُظَنُّ أَنَّ التُّقْطَةَ تَلْحُقُ بِي خَبِيًّا؟

مَا الَّذِي أَصَابَنِي فَوَضَعْتُ

عَلَى الْكَتِفَيْنِ بَيْضَةً بَدَلَ الْمَعْطَفِ؟

مَا الَّذِي أَصَابَنِي، لِأَكُونَ حَيًّا؟

ما الذي أَصَابَنِي، لأموت؟

ما الذي أَصَابَنِي، فامتلكت عَيْنًا؟

ما الذي أَصَابَنِي، فامتلكت رُوحًا؟

ما الذي أَصَابَنِي، فانتهى الآخرُ فيَّ

وابتداً دورَ الرِّيحِ في خَدِّي؟

ما الذي أَصَابَنِي، لأحصي دَمْعَتِي،

وأبكي تراباً وأُعلِّقُ الأُفُقَ؟

ما الذي أَصَابَنِي، لأبكي عدمَ قُدْرَتِي على البُكاءِ

وأضحكُ من القليل الذي ضحكته؟

ما الذي أَصَابَنِي، فأنا غيرُ حيٍّ وغيرُ ميت؟

30 أكتوبر 1937

وماذا لو بعد كل هذا الكلام

وماذا لو بعد كل هذا الكلام،

لا تنجو الكلمة!

وبعد أجنحة العَصافير،

لا ينجو العُصفورُ الواقفُ

سيكونُ من الأجدى - حقاً -

أن يأكلوا كلَّ شيءٍ وننتهي!

وُلد ليعيشَ على موتنا!

ينهضُ من السَّماء نحو الأرض

بقدره كوارثه نفسها

ويترصّد اللحظة التي يُطفئ ظلماته بظلمتها!

من الأجدى - بصراحة -

أن يأكلوا كلَّ شيءٍ.. وما الفرق...!

وإذا ما انهزَمنا بعد كلِّ هذه القصة،

ليس من الأبدية،

وإنما من هذه الأشياء البسيطة، كأن نكونَ

في البيتِ، أو نستغرق في التأمل!

وإذا وجدنا بعد ذلك،

بغتةً، أننا نعيشُ،

بالنظرِ إلى علوِّ النجوم،

وطياتِ المنديلِ ولطخاته

سيكون من الأجدى - حقاً -

أن يأكلوا كلَّ شيءٍ.. بكلِّ تأكيد!

سيُقَالُ إننا نملكُ

في إحدى عينينا حزن كبير

وكذلك في العين الأخرى، حزناً كبيراً...

عندئذٍ... بالطبع!... عندئذٍ... ولا كلمة واحدة!

تصفيق إيقاعي وجيتار

هنا. الآن، بيننا.

تعالى معي، واحضري جسدك بيدك

ولنتعش معاً ولننقل الحياة لحظةً

إلى حياتين ولنُعطي بضعَةً منها لموتنا.

الآن، تعالى معي، واصنعي لي جميلاً

بالاشتكاء، باسمي، ضدَّ نورِ الليلِ الداجي

وأنتِ تُحضرين روحك بيدك

ولنهرب على رؤوس أصابعنا معاً.

تعالى إليّ، أجل؛ وإليك، أجل،

تعالى بخطوة مزدوجة، كي نرى نفسينا بخطوة فردية،

نُعلِّم خطوة الوداع.

إلى أن نرجع! حتى الرجوع!

إلى أن نقرأ، نحن الجهلة!

إلى أن نرجع، ويكون الوداع!

ماذا تهمني البنادق؟

اسمعيني؛

اسمعيني، ماذا يهمني

إذا كانت الرصاصة تدور في مقام توقيعي؟

وماذا تهمة الرصاصات،

إذا كانت البندقية تعبق برائحتك؟

اليوم بالذات سنقبل

نجمتنا على ذراعي أعمى

وحين نغنين لي، سنبكي.

اليوم بالذات أيتها الجميلة، بخطوتك المزدوجة

وثقتك التي وصلها دُعري،

سنخرج من ذاتنا، مثنى مثنى.

إلى أن نُصبحَ عُمياناً!

إلى أن

نبكي من كثرة الرجوع!

الآن،

احضري بيننا،

بيدك، شخصك العذب

ولنتعشَّ معاً ولننقل الحياة لحظة

إلى حياتين ولنعطِ بعضاً منها لموتنا.

الآن، تعالي معي، أرجوكِ

غنيني شيئاً

واعزفي على روجك، اعزفي.. آه!

إلى أن نعوداً إلى ذلك الحين!

إلى أن نرحل.. نودّع.

8 نوفمبر 1937

باريس، أكتوبر 1936

أنا الوحيد الذي يغادرُ من كلِّ هذا.

من هذه المِصطبةِ سأغادرُ، من سراويلي الداخلية،

من وضعي العظيم، من أعمالي،

من رقمي المتصدِّعِ جزءاً جزءاً،

من بين كلِّ هذا أنا الوحيد الذي يغادرُ.

من «شارعِ الاليزيه» أو عندَ الانعطافِ

إلى رُقاقِ «القمر» الغريب،

تمضي رُفاتي، ويغادرُ مهدي الطفوليُّ،

ويدورُ شَبهي البشريُّ على نفسه،

مُحاطاً بالناس، وحيداً، طليقاً،

يُصرفُ ظلاله واحداً فواحداً.

وأبتعدُ عن كلِّ شيء، لأن كلَّ شيء

سيبقى دليلاً على غيابي:

حذائي، رباطه، ووحله كذلك

وحتى طَيَّات المرفق

في قميصي المُزَرَّر.

كتاب الطبيعة

يا أستاذة النَّحِيبِ - قلتُ لشجرةٍ -

يا قضيبَ زُبُقٍ، أيتها الزَّيزفونَةُ

الهامسةُ، على ضفةِ المارنِ، هُنَاكَ تلميذٌ نجيبٌ

يمضي،

قارئاً في أوراقِ لَعِبِكَ، في أوراقِكَ المتساقطةِ،

ما بينَ الماءِ الجليِّ، والشمسِ الزائفةِ،

يقرأُ ورقةَ «3 كُبَّة» وحصانه الديناري

أيتها العميدةُ الجامعيةُ لفصولِ السَّماءِ،

للذبابِ المتوقدةِ، للسكونِ اليدويِ في الحمير؛

يا عميدةَ جامعيةٍ للجهدِ العميقِ، هُنَاكَ تلميذٌ خائبٌ

يمضي،

قارئاً في أوراقِ لَعِبِكَ، في أوراقِكَ المتساقطةِ،

جوعُ العَقْلِ يُفقدُه صَوَابُهُ

وظمأُ العتِه يَجنُّنُه.

يا خبيرةً في الصراخِ، يا شجرةً واعيةً، قويةً،

نهريةً، مضاعفةً، شمسيةً، مُضاعفةً، متعصبةً،

يا عارفةً الورود الأصلية، أيتها المندسة

حتى النزف، في أشواكٍ واخزة. تلميذٌ

يمضي قارئاً في أوراقٍ لعبك، في أوراقك المتساقطة،

يقراً ملكه البستوني في ورق اللعب. ملكة الأرضي، البركاني.

آه يا أستاذة، لكثرة هذا الجهل!

آه أيتها العميدة الجامعية، لكثرة ما يهتزُّ الهواء!

آه أيتها الخبيرة، لكثرة ما تُنحني!

آه أيتها الزيزفونة!... آه يا قضيياً هامساً إلى جوار المارن!

الغضب الذي يفتت الرجل أطفالاً

الغضبُ الذي يفتتُ الرجلَ أطفالاً،

ويُفتتُ الطفلَ عسافيرَ متشابهة،

ثم يفتتُ العُصفورَ بعد ذلك، بيوضاً صغيرة؛

غضبُ الفقير

فيه زيتٌ مضادٌ لخليلين اثنين.

الغضبُ الذي يفتتُ الشجرةَ أوراقاً،

والورقة إلى أزرار غير متماثلة

ويفتت الزر إلى شقوق تلسكوبية؛

غضبُ الفقير

فيه نهران ضدَّ بحارٍ كثيرة.

الغضبُ الذي يفتت الخير إلى شكوك،

والشكُّ إلى ثلاثة أقواسٍ متشابهة

والقوس، بعد ذلك، إلى قبورٍ طارئة؛

غضبُ الفقير

فيه فولاذٌ واحدٌ ضدَّ خنجرين.

الغضبُ الذي يفتت الروحَ أجساداً،

والجسدَ إلى أعضاءٍ غيرٍ مُتشابهةٍ

والعضوَ إلى أفكارٍ من الدرجة الثامنة؛

غضبُ الفقير

فيه نارٌ مركزيةٌ ضدَّ فوهتين بركائيتين.

29 أكتوبر 1937

هو المكان الذي ألبس فيه

هو المكان الذي ألبس فيه

البنطال، إنه بيت

أخلع فيه القميص بصوت عالٍ

ولي فيه أرض.. روح.. خريطة لحبيبتني إسبانيا.

الآن بالضبط كنت أتكلم

عني معي، وأضع

فوق كتاب صغير رغيف خبز فظيع

وقمت، فيما بعد، بالانتقال.. نقلت

- راغباً في أن أترنم قليلاً - الجانب

الأيمن من الحياة إلى الجانب الأيسر،

وغسلت فيما بعد البطن وكل شيء

بحماسة ووقار؛

قمت بجولة لأرى ما الذي اتسخ،

كشطت ما هو قريب

ورتبت الخريطة

التي تكبو أو تبكي.. لا أدري.

بيتي، لسوء الحظ، هو بيتٌ،

أرضٌ بالمُصادفةِ، فيه تَعيش

ملعقتي الحبيبةُ بنقوشِها،

وهيكلي العظمي الحبيبُ دون حروف،

والسكينُ، ولفافةُ تبغٍ دائمة.

حقاً.. عندما أفكّر

فيما هي الحياة،

لا يمكنني تجنبُ قول ذلك لجورجيت،

من أجل تناول وجبة لطيفة والخروج،

وشراء جريدة جيدة في المساء،

والاحتفاظ بيومٍ لوقت الحاجة،

وليلة كذلك.. لوقتِ الوفرة

(هكذا يُقال في البيرو - فاعذروني)؛

وبالطريقةِ نفسها أعاني بحَدَرٍ شديد،

حتى لا أصرخُ أو أبكي، لأن للعينين،

بعيداً عن إرادة المرء، فاقتَهما،

أعني وظيفتهما.. شيئاً

ينزل من الروح ويسقط في الروح.

حينَ يجتازُ أحدنا

خمسةَ عشرةَ سنةً، بعدَ خمسِ عشرةَ، وقبلها خمسَ عشرةَ،

يشعرُ حقاً بالبَلاهة،

هذا طبيعي، وما سوى ذلك... ما العمل!

وما الذي لا نعمله.. وهذا هو الأسوأ؟

دونَ عيش، دونَ وصولِ

ليكونَ أحدنا ما هوَ بينَ ملايينِ

أرغفةِ الخُبز، بينَ التَّبيذ، وبينَ مئاتِ الأفواه،

ما بينَ الشَّمسِ وشعاعها الذي هوَ القمرُ

وما بينَ القداسِ، والخبزِ، والتَّبيذِ، وروحي.

إنه يومُ أحد، لذا

تخطرُ لي الفكرةُ، ولصدري النَّحيب

ولحنجرتي غصّةٌ مثلَ حزمةٍ كبيرة.

اليومَ أحد، وله

قرونٌ طويلة؛ بطريقةٍ أخرى،

سيكون، ربما، يومَ اثنين، وستأتي إلى القلبِ الفكرة،

وإلى الدماغِ النَّحِيبُ

وإلى الحنجرةِ رغبةً مرعبةً في خنقٍ ما أشعرُ به الآن،

كرجلٍ، مثلما أنا الآن ومثلما عانيت.

21 نوفمبر 1937

رفعة

مَنْ الذي لا يملكُ كُسوتهُ الزرقاء؟

من الذي لا يتغدى ولا يركب الترام،

بِلُفَاتِهِ الْمُتَعَاقِدَةِ ووجعِ جيبه؟

أنا الذي وُلدتُ وحسب!

أنا الذي وُلدتُ وحسب!

من ذا الذي لا يكتبُ رسالةً؟

من ذا الذي لا يتكلَّمُ في مسألةٍ مُهمّة،

مُحتضراً من العادة وباكياً من مَسْمَعِهِ؟

أنا الذي وُلدتُ وحسب!

أنا الذي ولدت وحسب!

من ذا الذي لا يدعى كارلوس أو أي شيءٍ آخر؟

من ذا الذي لا يقول للقط: يا قط يا قط؟

آه، أنا فقط الذي وُلدت وحسب!

آه، أنا فقط الذي وُلدت وحسب!

وباختصار، ليس لدي ما أعبر به عن حياتي

وباختصار، ليس لدي ما أُعبرُّ به عن حياتي، سوى موتي.

وباختصار، أنا أشفي بالموت قروح الحياة.

وبعدَ كلِّ شيءٍ، مع انتهاء الطبيعة المتدرّجة والدوري المتكثّل،

أنامُ مع ظلي يداً بيد.

ولدى النزول من العمل الموقر ومن الأئين الآخر،

أستريحُ مفكراً في مسيرة الزمن الباسلة.

لماذا الحبلُ إذن، ما دامَ الهواءُ بسيطاً جداً؟

لماذا السلسلةُ، ما دامَ الحديدُ موجوداً بذاته؟

سيسر بايخو، النعمة التي بها تحبُّ، الكلمة التي بها تكثبُ،

الهواء الخفيف الذي به تسمعُ، لا يعرفونك إلا من حنجرتك.

سيسر بايخو، اسجد - اذن - بتكبر ملتبس،

بسرير عريس من ثعابين مزخرفة وأصداء سداسية.

رّمّ الشّهَدَ الجسدي،

عطر الفلين المزهر،

أغلق كهفيّ الإنسان - القرد الساخط كلاهما؛

أصلح، باختصار، غزالك المنقّر..

واحزنّ على نفسك.

لا وجود لما هو أشدّ زخماً من الحقدِ بفعلِ مبني للمجهول،

ولا وجود لضرع أشدّ بؤساً من الحبّ!

هاأنذا لم أعد أستطيع المشي، إلا على قيثارتين!

أنت لم تعد تعرفني، إلا لأنني أتبعك أداة، بكلّ تفصيل!

لست أعطي ديداناً، وإنما موجزات فقط!

إنني أورطك كثيراً، وتندمج في اللعبة!

لديّ بقوليات حَجولة وأخرى وقحة!

فالحبّ الذي يتكسر ليلاً في رثتي، جاء به نهاراً كهنة خفيون،

وإذا ما استيقظت شاحباً، فهذا من صنيعي؛

وإذا ما نمثُ أحمرَ، فالسببِ عاملي.

وهو ما يُفسّر أيضاً إرهابي هذا ورفاتي هذا.

وهو ما يُفسّر، في النهاية، دمعتي التي أقدمّها على شرفِ سعادة البشر.

سيسر بايئخو.. أكادُ لا أصدّقُ

أن ذويك يتأخرون هكذا،

وهم يعرفون أنني أسير،

ويعرفون أنك ترقدُ حُرّاً!

يا للحظِّ من رائعٍ وكلب!

سيسر بايئخو.. إني أكرهك بحنان!

قليلاً من الهدوء يا رفيق

قليلاً من الهدوءِ يا رفيق؛

هدوءٌ ضئيلٌ فسيح،

شمالي، كاملٌ وضارٍ،

في الخدمةِ الدنيا لكل انتصار

وفي الجرأةِ الخادمةِ للإخفاق.

لديك فائضٌ من النشوة، وليس من

جنون كثير في العقل، مثل هذا

التعقل العظمي، وليس هناك

خطأ عقلائي أكبر من تجربتك.

ولكن، إذا تكلمنا بوضوح أكبر

وفكرنا بالذهب، فأنت فولاذ،

شريطة ألا تكون

أحمق وتأبى

التحمس للموت كثيراً

وللحياة، بقبرك وحده.

من الضروري أن تعرف

كبح حجمك دون تسرع، ودون أن تغتم،

أن تعرف واقعا الجزئي كله

وراءه، مسيرة هتافك للحياة

وأمامه، دعواتك الخرافية للموت.

أنت من فولاذ، كما يقال.

ولذا فأنت لا ترتعش، ولن

تنفجر يا صاحبي

يا صاحب تقديراتي، يا ابنَ

أملاحي الساطعة المُفخَّم!

امضِ وحسب؛ حلَّ أزمَتِكَ،

قدَّرها، اجمع، واصل،

ابتزرها، أنزلها، أتلِّفها؛

إنَّه القَدْرُ، الطاقاتُ الحميمة، الأربعَ عشرةَ

آيةً خُبْزِيَّةً: كم من الشهادات

والسُّلطات، على حافةِ نوبةِ احتدامك!

كم من التفاصيلِ ملخضةً، معك!

كم من ضغْطِ مُطابقٍ، لقدَميك!

كم من الصَّرامةِ وكم من الرِّعاية!

إنَّه أحْمقُ

هذا المنهَجُ في الألم،

هذا النورُ المعدَّلُ والعنيف،

آه، لو كُنْتُ بالهُدوءِ وحدَه تومئُ

إيماءاتٍ جديدةً، مُميّزةً، محتومة.

هَلُمَّ بنا لنرى يا رَجُل؛

أخبرني بما يحدثُ لي،

فأنا، حتى لو صرختُ،

سأبقى دائماً تحت أوامرك.

نوفمبر 1937

تفكر الحمير الهرمة

سأرتدي الآن ثيابَ

موسيقى كي أراه،

سأصطدمُ بروحه، ملامساً قَدْرَه بيدي،

سأتركُه ساكناً، لأنه رُوْحٌ متوقفة،

وباختصار، سأتركُه

ربّما مَيْتاً فوق جَسَدِه الميت.

يمكنه اليومَ أن يتمدّد في هذا البَرْد،

يمكنه أن يسعلَ؛ رأيته يتشاءبُ، مضاعفاً في مسمِعه

حركته العضلية المشؤومة

إنني أعني رجلاً⁵⁽¹⁾، أعني صورته الإيجابية

ولم لا؟ نبنته العازفة،

ذلك الخيط الفاخر المخيف؛

عكَّازَه ذا القَبْضَةِ الفضية على هيئة كَلْب،

والأطفال

الذين قالَ إنهم أصهارُه المأتمِّيون.

ولهذا سأرتدي اليومَ ثيابَ موسيقيِّ،

سأضطدُّ بروحَه التي بقيت تنظرُ إلى مادتي...

ولكنني لن أراه أبداً يَحْلُقُ ذَقْتَه عندَ أقدامِ صباحِه؛

أبداً، مطلقاً، ثمَّ ماذا!

يا للعجب! يا للشيءِ الشيء!

يا لأبدِ آبادِ أبده!

ألفونسو: أنت تنظر إلي، أرى ذلك

ألفونسو: إنَّكَ تنظرُ إليَّ، أرى ذلك،⁶

من المستوى المحتوم، حيث تقبع

خَطِيئة الأزال، خَطِيئة الآباد.

(هذه الليلة، نمت، ما بين حُلْمِكَ

وحُلْمِي، في شارعِ ريبو)⁷.

بوضوح

يَسْمَعُكَ تشولووك⁸ الذي لا يُنسى تمشي

في باريس، يسمعُ صمتَكَ في الهَاتِفِ

ويلمس في السِّلِكِ عملَكَ الأخير

تنهَضُ، ترفعُ نخباً

نخبَ العُمُقِ، نخبي، نخبك.

أنا ما زلتُ

أشتري «النبيدَ والحليب، وأحصي دُرَيْهَمَاتِي القليلة»⁹⁽¹⁾

تحتَ مِعْطَفي، كيلا تراني رُوحِي،

تحتَ مِعْطَفي ذاكِ يا عزيزي ألفونسو،

وتحتَ الوميضِ البسيطِ للصدغِ؛

ما زلتُ أتألم، أما أنتِ فلا.. لن تتألم أبداً يا أخي!

(قِيلَ لي إنكَ في دُهورِ أَلَمِكَ،

يا كائني الحبيب

يا كائني العابر الحبيب،

كنت تصنعُ أصفاراً خشبيةً. هل هذا صحيح؟)

كنت تعزف ألحانَ تانغو في علبةٍ ليلية،

وكان مخلوقك السّاحط يعزف قلبه

محروساً بك أنت نفسك، باكياً

عليك وعلى تشابُهك الهائل مع ظلك،

المسيو، صاحبُ الملهى، هَرَمَ.

أُخْبِرُهُ؟ أنقولُ له؟ لم يعد هنالك،

ألفونسو، هذا لم يعد ممكناً!

فندق دي زيكول مازال يعمل

وما زالوا يشترون اليوسفي؛

ولكنني أتألم، مثلما أقولُ لك،

بعذوبةٍ، متذكراً

كم عانينا كلانا، موت كلينا،

في افتتاح القبر المزدوج،

القبرُ الآخر.. قبرُ كيانك،

هذا التابوت الآخر بكينونتك،

أتألم شارباً كأساً منك يا سيلفا،

كأساً لتعديل المزاج، مثلما كنا نقول،

وبعد ذلك، سنرى ما الذي يجري...

هذا هو النحيب الآخر، بين ثلاثة،

النحيب المكفهر، المختلف

بنبيذ، في عالم، في زجاج، كنا نرفعه نخباً

أكثر من مرة للجسد

وأقل من مرة، للفكر.

اليوم أتألم بعدوبة، بمرارة،

أشرب دمك وكانك مسيخ قاس

أكل عظمك وكانك مسيخ رقيق،

لأنني أحبك، اثنين على اثنين، يا الفونسو،

وأكاد أقول.. أحبك كاملاً.

29 أكتوبر 1937

استمع إلى كتلتك

استمعِ إلى كَتَلَتِكَ، إلى نيزكِكَ، أنصتِ إليهما؛ لا تتأوّه

عن ظهرِ قلب، أيها الحوثُ الثقيلُ؛

أنصتِ إلى عباءتِكَ التي تتوسدُها،

استمعِ إلى عُريكِ، فهو سيّدُ الحلمِ.

احكِ نفسك مُمسِكاً

بذيلِ النَّارِ وبالقرونِ

حيثُ تنهي الذؤابةُ عدوّها القاسي؛

تحطّمُ، ولكنْ بدائريةً؛

تشكّلُ، ولكنْ بأعمدةٍ مُقوسةٍ؛

صِفْ نفسك أثيرياً، كائناً دُخانيّاً،

بخطوةٍ هيكلِ عظمي.

الموتُ؟ عارضُهُ بكلِ ثوبِكَ!

الحياةُ؟ عارضُها بِجُزءٍ من موتِكَ!

أنتِ يا بهيمةً سعيدةً، فكّر؛

يا إلهاً تَعَساً، اخلع جَبْهَتَكَ.

وبعدها، سنتحدث.

29 أكتوبر 1937

المنجميون خرجوا من المنجم

المنجميونَ خَرَجُوا مِنَ الْمُنْجِمِ

مُعْتَلِينَ خَرَائِبَهُمِ الْآتِيَةَ،

حَزَمُوا صَحَّتَهُمْ بِفِرْقَعَاتِ صَاحِبَةِ

وَشَاغِلِينَ وَظَيْفَتَهُمِ الدُّهْنِيَّةَ،

أَغْلَقُوا بِأَصْوَاتِهِمْ

الْحُفْرَةَ عَلَى شَكْلِ عَارِضٍ عَمِيقٍ.

يا لِرُؤْيَا أَتْرِبَتِهِمِ الْمَنْبُوشَةَ!

يا لِسَمَاعِ أَكاسِيدِهِمِ الْعَالِيَةَ!

أَسَافِينُ فَمُويَّةَ، سِنْدَانَاتُ فَمُويَّةَ، أَجْهَزَةُ فَمُويَّةَ

(يا لِلرُّوعَةِ!)

تَرْتِيبُ جِثْوَاتِهِمْ،

اسْتِنْتِجَاتُهُمِ الْجَمَالِيَّةَ، رَدُودُهُمِ الْكُورَالِيَّةَ،

تكدّست عند أقدامِ مَحَنِ نارية.

مُتَجَمِّمو الشُّغل

منتعلو الجلود

منتعلو دروبٍ لانهائية،

عيونهم.. عيونُ البكاءِ الطَّبِيعي

مبدعةُ الأعماق،

تعرفُ وهي على سماءِ السَّلامِ المُتناوبة،

كيف تنزلُ ناظرةً إلى أعلى،

وكيف تصعدُ ناظرةً إلى أسفل.

المجدُّ للعبةِ طبيعتهم القديمة،

لأعضائهم المؤرّقة، ولعابهم الخشن!

لسقاية فولاذهم، للشفرة، لرأسِ رموشهم المدّب!

تنمو العُشبةُ، الأشنّةُ، والضَّفدعُ في ظروفهم!

مُخملٌ حديديٌّ لملاءِ إتهم الزَّفافية!

نساءٌ حتى الحضيضِ، نساؤهم!

سعادةٌ كبيرةٌ لذويهم!

إنهم شيءٌ عجائبيّ، هؤلاء المنجميون

وهم يعتلون أطلالهم الآتية،

فاتحين بأصواتهم

النفق على شكلٍ عارض عميق!

المجد لطبيعتهم الصّراوية،

لمصباحهم السّحري،

لدلائهم، لمعيناتهم، لجعالاتهم البلاستيكية،

لعيونهم ذات سبعة الأعصابِ البصرية

لأبنائهم الذين يلعبون في الكنيسة

ولآبائهم الطفوليين المضمّرين!

تحية لكم يا من تُبدعون الأعماق...! (يا للروعة.)

أريد اليوم أن أكون سعيداً

أرغبُ اليومَ في أن أكونَ سعيداً عن طيبِ خاطر،

أن أكونَ سعيداً وأحملَ وأمضي وارفاً بالأسئلة،

وأن أفتحَ بمزاجٍ عُرفتي على مصراعِها، مثلَ مجنون،

وأن أطلبَ، أخيراً،

بثقتي الجَسَدِيَّة راقداً،

لمجرد أن أرى إن كانوا يُريدونَ التأكُّدَ من وضعي العَفَوي،

وسأقول مطالباً،

لماذا تُضربونني بهذه القَسوةِ في رُوحِي.

أريدُ باختصار أن أكونَ سَعِيداً،

أن أعملَ دونَ عُكَّاز، دونَ تذلُّلٍ دُنَيوي، ودونَ حمارٍ أَسود.

هكذا هي أحاسيسُ هذا العالم،

الأغاني في الأفعال المنصوبة،

قلمُ الرصاص الذي فقدتهُ في فَجوتي

أجهزةُ بُكائي الحبيبة.

يا أخي القابلَ للإقناع، يا رفيقي.

أيها الأبُّ بالعظمة، أيها الابنُ الفاني،

الصديقُ والكابحُ، يا وثيقةَ داروينَ الفسيحة:

في أي ساعةٍ، إذن، سيأتون بصورتي؟

أفي ساعة اللذة؟ ساعة لذة مكثفة؟

أبكر؟ من يدري، هل في ساعة الإصرار؟

في ساعة الشَّفَقَات يا رفيق،

أيها الرجل في رفضٍ وتفحصٍ، يا جاراً

على عُنقه الضَّخْم يصعدُ وينزلُ أملي،

على سجيته، دون خيط...

العنف في الساعات

الجميعُ ماتوا.

ماتت دُونيا أنطونيا ذات الصوتِ الأبح،

من كانت تصنعُ خبزاً رخيصاً في البلدة.

مات الكاهن سنتياغو

مَنْ كانَ يستمتعُ بتحيّة الشُّبانِ والفتياتِ،

ويردُّ عليهم جميعاً، دون تفريق:

«صباحُ الخيرِ يا خوسيه! صباحُ الخيرِ يا ماريّا!».

ماتت تلك الشَّابةُ الشَّقراءُ، كارلوتا،

تاركة ابناً عمره شهور، ما لبث

أن ماتَ ثمانية أيام بعدَ أمه.

ماتت عمّتي ألبينا

وكانت معتادةً على التَّعْنِي

بأزمنةٍ وأساليبِ المزرعةِ، بينما هي

تخيِّطُ في الممراتِ لأيسيدورا،

المرأةَ النزيهةَ، والخدمِةَ في المهنةِ.

مات عجوزُ أعورٍ، لا أتذكرُ اسمَه،

لكنَّه كان ينامُ تحتَ شمسِ الصِّباحِ،

جالساً أمامَ بابِ السِّبَّاكِ الذي على النَّاصيةِ.

مات «رايو»، الكلبُ الذي بمستواي،

مصاباً برصاصةٍ لا أحدَ يدري منَ أطلقَها.

ماتَ لوقا، صهري في طُمانينةِ اليخصور،

وأنا أتذكرُه كلما هطلَ مطرٌ، وليسَ ثمةَ أحدٌ في تجربتي.

ماتتُ أُمِّي بمُسدسي،

وبقبضتي ماتتُ أختي،

وأخي ماتَ في أحشائي النَّازفةِ،

وارتبطَ الثلاثةُ بجنسِ حزنِ حزين،

في شهرِ أغسطس من ثلاثِ سنواتٍ مُتتاليةِ.

ماتَ الموسِقيُّ مِينديثَ،

الطويلُ والمخمورُ جداً،

وكانَ يعزفُ ببوقه أحياناً كئيبه،

قبلَ أنَ تَمضي الشَّمسُ بوقتِ طويلٍ.

ماتتَ سَرمديتي وهأنذا أسهرُ على جُثمانِها.

أشعر بالبرد من الحر الخالص

مِنَ الْحَرِّ الْخَالِصِ أَشْعُرُ بِالْبَرْدِ،

أَيَّتَهَا الْأَخْتُ «حَسَد»!

تَلْحُسُ ظِلِّي أَسْوَدُ

وَالجِرْدُ يَقْرُضُ اسْمِي،

أُمَاهُ يَا رُوحِي!

عَلَى شَفِيرِ الْهَائِيَةِ أَمْصِي،

أَيُّهَا الصَّهْرُ «رَذِيلَةَ»!

الْيُسْرُوعُ يَعْرِفُ صَوْتَهُ،

وَالصَّوْتُ يَعْرِفُ يُسْرُوعَهُ،

أَبْتَاهُ يَا جَسْدِي!

حُبِّي فِي مُوَاجَهَتِي،

أَيَّتَهَا الْحَفِيدَةُ «حَمَامَةَ»!

مِن رُكْبَتَيْنِ رُعْبِي

وَمِن رَأْسِ كَرْبِي،

أماه يا زُوحى!

وحتى يوم لا ثاني له،

أيتها الزوجة «قبر»!

نصلي الحديدي الأخير يطلق صوت

أفعى نائمة،

أبتاه يا جسدي...!

29 سبتمبر 1937

الحس السليم

في العالم يا أمي مكانٌ يُدعى باريس.

مكانٌ واسعٌ جداً وبعيدٌ وواسعٌ مرة أخرى.

أمي تُحكِم لي ياقةَ المعطف، ليسَ لأنَّ الثلجَ

سيشرعُ بالهطول، وإنما لكي يبدأ الثلجُ بالهطول.

زوجةُ أبي مُغرمةٌ بي،

تأتي وتتقدّم مولىةً ظهرها إلى مولدي

ومتوجهةً بصدرها إلى موتي.

فأنا لها مرّتين: في الوداع وفي الرجوع.

أعانقها عند الرجوع.

فتقول لي عيناها الكثير،

عني وعن تلبسي بالجرم المشهود،

وتوقع نفسها في أعمال ناجزة،

وفي موثيق محكمة.

أمي تعترف بي،

وتسمى بي.

كيف لا تمنح مثل ذلك لإخوتي الآخرين؟

لفكتور مثلاً، البكر،

فهو عجوزٌ يقول الناس عنه: يبدو كأنه أخو أمه الصغير!

أتراها تفعل ذلك لأنني سافرت كثيراً!

أبكون لأنني عشت أكثر!

أمي تتذكر رسالة ملونة المطع عن حكاياتي في الرجوع.

وحيال حياتي في الرجوع،

تتذكر أنني سافرت عبر قلبين في أحشائها،

فيعتربها الخجل وتصاب بشحوب قاتل حين أقول،

في ميثاق الروح: كُنْتُ محظوظاً في تلك الليلة.

ولكنها تبدو حزينةً في الغالب،

إنها تُبدي الحزنَ في الغالب.

– بُنَيَّ، كم هَرَمْتَ يا بُنَيَّ!

وتستعرضُ لونَ البُكاءِ الأصفر،

لأنِّي هَرَمْتُ، في شَفرةِ السيفِ، في مصبِّ وجهي.

تُبكي عليَّ. تحزنُ لأجلي.

كم ستفتقدُ فتوتِي إذا ما بقيتُ ابنتها على الدَّوام؟

لماذا تتألمُ الأمهاتُ من هَرَمِ أبنائهنَّ،

مع أن أعمارهمُ لن تبلغَ أعمارهنَّ أبداً؟

ولماذا يقتربُ الأبناءُ من آباءهم أكثر فأكثر

كلما اقتربوا من نهايتهم؟

أمي تبكي لأنِّي هَرَمْتُ في زمني

ولأنِّي لن أتوصلَ أبداً إلى الهرمِ في زمانها!

وداعي انطلقَ من نُقطة في كيانها،

أكثرَ خارجيةً من نُقطة كيانها التي إليها أعود.

ولإفراطي في تأجيل عودتي

صرتُ رجلاً في عيني أُمي أكثرَ مما أنا ابنتُها.

هنا تكمنُ البراءةُ التي تُضيئُنا اليومَ بشُعلاتٍ ثلاث.

فأقول لها حينئذ وإلى أن أصمت:

- في العالم يا أُمي مكانٌ يُدعى باريس.

مكان كبيرٌ جداً وبعيدٌ وكبيرٌ مرةً أخرى.

وحين تسمعني زوجةً أُمي،

وهي تتغدى.. وتنزلقُ عيناها الفانيتان

بعذوبةٍ على ذراعي.

يقولون لي

- لم يعد أحد في المنزل

يقولون لي:

- لا أحدَ يعيشُ في المنزل، فالجميعُ قد ذهبوا.

الصالة، حجرةُ النوم، الفناء، كلُّها خاوية.

لم يبقَ أحدٌ، فالجميعُ غادروا.

وأنا أقولُ لك: حينَ يذهبُ أحدٌ، يبقى أحدٌ.

النقطة التي مرّ منها إنسان، لن تبقى وحدها.

والوحدة هي وحدة بشرية وحسب،

هي مكانٌ لم يمرّ منه إنسان.

البيوت الجديدة أشدّ موتاً من البيوت القديمة

لأن جدرانها من حجرٍ وفولاذ،

لكنها ليست من بشر.

البيت يأتي إلى الدنيا ليس عندما ينتهون

من بنائه، وإنما عندما يبدوون بسكناه.

والبيت يحيا فقط بالناس، مثل القبر.

الفرق أن البيت يتغذى على حياة الإنسان،

والقبر على موت الإنسان.

فيكون الأول منتصباً ويكون الثاني مُستلقياً.

الجميع غادروا البيت في الواقع،

ولكنّ الجميع بقوا حقيقةً.

ليست ذكراهم هي التي بقيت،

وإنما هم أنفسهم.

وليس الأمر أنهم بقوا في البيت،

وإنما في أنهم مازالوا في البيت.

وظائفهم وأعمالهم غادرت البيت في قطار

أو طائرة أو على حسان،

مشياً على الأقدام أو زحفاً.

وبقي في البيت الجهاز، العامل بصيغة المصدر.

فالخطوات ذهبث، وكذلك القبلات،

والصفح والذنوب.

وبقيت في البيت القدم، الشفتان، العينان، القلب.

النفي والتأكيد، والخير والشر، تفرقت مبعثرة.

وبقي في البيت فاعل الفعل.

يوجد أبتَر مشوه

هنالك مشوه،

ليس مشوهاً في معركة وإنما في عناق،

ليس في حرب وإنما في سلام.

فقد وجهه في الحب وليس في الكراهية.

فقدَهُ في سياق الحياة الطَّبِيعِي وليس في حادِثٍ.

في نظامِ الطَّبِيعَةِ وليس في فوضى البشر.

الكولونيل بيكو، رئيس قدماء المحاربين،

له فَمٌ أَكَلَهُ بارودٌ 1914.

هذا المشوهُ الذي أعرفه له وجهٌ

مأكولٌ بالهواءِ الخالدِ العتيقِ.

وجهٌ ميثٌ فوق الجسدِ الحيِّ.

وجهٌ متصلبٌ ومثبَّتٌ بمساميرَ على الرأسِ الحيِّ.

هذا الوجهُ هو قفا الجُمجمةِ..

إنه جُمجمةُ الجمجمةِ.

رأيتُ فيه مرةً شجرةً تديرُ لي ظهرها

ورأيتُ في مرةٍ أخرى درباً يوليني ظهره.

وشجرةٌ تُديرُ ظهرها لا تنمو إلا في أمكنة

لم يولد ولم يمت فيها أحد.

ودربٌ يولي ظهره لا يتقدَّم إلا عَبْرَ أمكنة

جرت فيها كلُّ أشكالِ الموتِ دونَ أن تعرفَ ولادةً واحدةً.

مشوهُ السلامُ والحُبُّ،

مشوهُ العناقِ والنظامِ الذي له وجهٌ ميتٌ على جذعِ حَيِّ،

ولدَ في ظلِّ شجرةٍ مُوليةٍ ظَهَرَهَا

وحياثُه تَسِيرٌ على امتدادِ طريقٍ هي الأخرى تُدير ظَهَرَهَا.

لأنَّ الوجهَ مُتصلَّبٌ وميتٌ،

تلجأُ حياةُ الرَّجلِ النَّفسيَّةُ، وكلُّ تعبيره الحيوانيِّ كُلِّه

إلى جمجمةِ الشَّعرِ الكثيفِ، والصدرِ والأطرافِ،

لثترجمَ إلى الخارجِ.

وحيثُ تخرجُ دوافعُ كيانه العميقِ،

تزيغُ عن الوجهِ والنَّفيسِ،

عن الشَّمِّ، الرُّؤيةِ، السَّمعِ، الكلمةِ، البريقِ الإنسانيِّ،

وتتبدى من الصدرِ، من الكتفينِ، من الشَّعرِ،

من الأضلاعِ، الذراعينِ، الساقينِ، القدمينِ.

مشوهُ الوجهِ، مغطَّى الوجهِ، مقفلُ الوجهِ،

هذا الرجلُ كاملٌ لا ينقصُه أيُّ شيءٍ.

ليسَ له عينانِ، ويرى ويبكي.

ليس له فم، ويتكلم ويتسم.

ليس له جهة، ويفكر ويغرُق في ذاته.

عرف يسوع مَنْ هو مشوّه الوظيفة،

من كان له عينان ولا يرى، وله أذنان ولا يسمع.

أما أنا فعرفت مشوّه الأعضاء،

من يرى بلا عينين ويسمع بلا أذنين.

قائمة عظام

طلبت أصوات صارخة:

- أظهر يديك الاثنتين معاً.

ولم يكن هذا ممكناً.

- فليأخذوا قياس خطواتك، أثناء بكائك.

لم يكن هذا ممكناً.

- قم بعمل جنوني.

وهذا لم يكن ممكناً.

- ليقف بينك وبين شخص آخر شبيهك حشد من البشر أشباهكم.

لم يكن ممكناً.

- نادوهُ أخيراً باسمه.

ولم يكن هذا ممكناً.

يمضي راكضاً، ماشياً، هارباً

يمضي راكضاً، ماشياً، هارباً

من قدميه...

يمضي بغيمتين في غيّمته،

يجلسُ مختلّقاً، في يد منقبضة

من أجلِ آجاله الحزينة، عند إذكاءاته المأتمية.

يركضُ من كلِّ شيء، ماشياً

ما بين اعتراضاتِ بلا لون؛ يهربُ

صاعداً، يهربُ

نازلاً، يهربُ

بخطوٍ، يهربُ

رافعاً البحرَ بين ذراعيه،

يهربُ

مباشرةً لبيكي وحدّه.

حيثما ذهبَ،

بعيداً عن قدميهِ الوعرتينِ الخبيثتينِ،

بعيداً عن الهواءِ، بعيداً عن رحلتهِ،

كي يهربَ، يهربَ ويهربَ ويهربَ

من قدميهِ - رجلٌ واقفٌ على قدمينِ، متوقفاً

لكثرةِ ما هرب - سيكونُ عطشانَ للركضِ.

آه لقارورةِ بلا نبيذا!

آه لقارورةِ بلا نبيذا! آه لنبيذِ ترمَلْ من هذهِ القارورةِ!

مساءً، عندما التهبتُ تباشيرُ فجرِ المساءِ

بشؤمِ نبي خميسِ أرواحِ.

ترمَلْ دونَ خبزٍ ودونَ قذارةِ، منتبهٍ إلى فلزاتِ مخيفةِ

وإلى خلايا فمويةِ مُنتنهِ.

آه يا دوماً.. لا لقاءَ أبداً مع أبدي كل هذهِ الديمومةِ!

آه يا أصدقائي الطيبين.. أيُّها الرباءُ القاسي،

الجزئيُّ، النَّافِذُ في انقطاعنا،

وأبيها العَمُّ المتبخِرُ اللُّعوب!

أَيُّهَا الْكَمَالُ الْوَضِيعُ لِلخَنْزِيرِ،

لَامَسِ كَأَبْتِي الْعَامَةَ!

يَا نَعْلًا رِنَانًا فِي الْأَحْلَامِ،

أَيُّهَا النَّعْلُ

الْخَشْنُ، الدُونِيُّ، المَبَاعُ، المَبَاخُ، اللُّصُّ،

انزِلْ وَالْمَسَ مَا كَانَتْهُ أَفْكَارِي!

أَنْتَ وَهُوَ وَهَمٌ وَالْجَمِيعُ،

دَخَلْتُمْ مَعِ ذَلِكَ،

دَفْعَةً وَاحِدَةً فِي قَمِيصِي،

دَخَلْتُمْ خَشْبًا فِي الْأَكْتِافِ،

وَعِيدَانًا رَفِيعَةً بَيْنَ عِظَامِ الْفَخْدَيْنِ،

وَأَنْتَ تَحْدِيدًا،

دَخَلْتَ بَعْدَ أَنْ أَثَّرْتَ فِيَّ؛

وَهُوَ التَّافَهُ، الْأَحْمَرُ، بِنَقْوِدِ دَخَلِ.

وَهُمْ، دَخَلُوا مِثْلَ يَعَاسِيْبَ بِجَنَاحِ مِنْ وَزْنِ آخِرِ.

آه لِقَارُورَةٍ بِلَا نَبِيذٍ! آه لِنَبِيذٍ تَرْمَلُ مِنْ هَذِهِ الْقَارُورَةِ!

16 سبتمبر 1937

مضى الذي سيأتي

مَضَى الآنَ الذي سيأتي

مطرووداً مَضَى، ليجلس في تطوري الثلاثي؛

مضى للتو إجرامياً.

جلس الآن هاهنا،

على جسدٍ بعيدٍ عن رُوحِي،

من جاء على حمارٍ ليُوهِنَنِي؛

جلس للتو واقفاً، شاحباً.

أعطاني الآن ما هو ناجزٌ،

أعطاني دفء النارِ وضميراً فسيحاً

نمّاه الحيوانُ تحت ذيلِهِ.

الآن

أعرب لي عن شكِّه بنظرياتِ نائية

يُبَعدها هو نفسه أكثرَ، بنظره.

قدّم للتو إلى الخير تشريفاتٍ لائقة

من أجل ما هو حلمٌ فيّ وما هو مقتولٌ فيه.

وضع لي للتو (لا وجود لأولى)

محنّته الثانية على أمّ ظهري

وعرقه الثالث على أمّ دمعتي.

مضى دون أن يكون قد أتى.

12 نوفمبر 1937

مختارات من ديوان «النذر السود»

النذر السود

هناك ضربات في الحياة.. ضربات عنيفة... لست أدري!

ضربات مثل غضب الرب؛ كأن رجع كل الآلام حيالها

يترسب راكداً في أعماق الروح... لست أدري!

إنها ضربات ضئيلة؛ لكنّها ضربات... تشقُّ أخاديدَ قاتمةً

في أشدّ الوجوه فظاظَةً، وفي أكثرِ الظهورِ صلابَةً.

قد تكون أفراس البرابرة الأتيليين¹⁰؛

أو النذر السود يرسلها إلينا الموت.

إنّها العثرات العميقة لمسيح الروح

عثرات إيمانٍ كفرَ به القدرُ.

ضربات داميةٌ هي فرقعات

حُبزنا المحترق عند بابِ الفرن.

الإنسان... بائس... بائس! يلتفت بعينه

_ مثلما نفعل حينَ تربتُ على كتفنا راحةً منادية _

يلتفتُ

بعينينِ مجنونتين،

ويتجمعُ في نظرتِه

كلُّ ما عاشه، مثلُ مُستنقعِ خطيئةٍ راكِدٍ.

هنالك ضرباتٌ في الحياة، ضرباتٌ عنيفة... لستُ أدري!

برج بابل

بيتٌ عذبٌ دونَ طرازٍ مُحدّد، مشيّدٌ

بضربةٍ واحدة.. من حُجرةٍ واحدة

من شمعٍ لَماعٍ.

وفي البيتِ، هي

تنبشُ وترتبُ؛ وأحياناً تقولُ:

«المأوى جميلٌ.. هنا وحسب!»

وأحياناً تنفجرُ بالبكاء!

صيف

هاأنذا راحلٌ أَيْها الصَّيْفُ. وتحزنني

أَيادي أَمْسياتِكَ سهلةُ الانقياد.

تصلُ وفياءً؛ تصلُ هرماً،

ولا تجدُ أحداً في رُوحِي أَيْها الصَّيْفُ.

أَيْها الصَّيْفُ! ستمرُّ على شرفاتي

بمَسبحةٍ عظيمةٍ من عقيقٍ وذهبٍ،

مثلَ مطرانٍ حزينٍ

يصلُ من بعيدٍ ليجدَ وليُّباركُ

الأقواسَ المُكسَّرةَ لعُروسينِ ميتينِ.

إنني راحلٌ أَيْها الصَّيْفُ. هُناك في سبتمبر

لي وردةٌ أو صيكَ بها كثيراً؛

ستسقيها بماءٍ مباركٍ كلَّ يومٍ

من أيامِ الخطيئةِ والقبرِ.

وإذا ما خفقَ الضريحُ برخامِ جناحيه

بقدرَةِ البُكاءِ،

فارفعُ عالياً ترتيلةَ موتاك، واطلبُ

من الربِّ أن تظلَّ ميتةً إلى الأبد.

فكلُّ شيء سيكوُن متأخراً:

ولن تجدَ أحداً في رُوحِي.

لا تبكِ أيُّها الصَّيْفُ! ففي ذلك الأُخدودِ

تموتُ وردةٌ تُبعثُ كثيراً...

كافرة

سيدي!

كنت وراء الزجاج

إنسانياً وحزيناً كالغروب؛

وكم كانت تبكي جنازتك

تلك المرأة!

عيناها خميسُ أسرارٍ،

حبتانِ سوداوانِ من نورٍ مريرا!

بقطراتِ جامدةٍ من دمٍ ودمع

غرستُ صليبك!

الكافرة!

منذ رحيلك يا سيدي،

لم تذهب قط إلى نهر الأردن،

إنها تخلع جلدَها في مياه حمراء،

وتبيع الخبز لليهودي الخسيس!

غائب

غائب! في الصّباح الذي سأمضي فيه

أبعد من البعيد.. إلى السرّ،

ومثل من يقتفي علامة محتمّة،

ستنزلق قدماك إلى المقبرة.

غائب! في صباح شاطئ

البحر ذي المظلة والسيادة الصامتة،

ومثل عُصفورٍ مائميّ أمضي،

سيكون الضريح الأبيض محبسك.

خيّم الليل في نظراتك؛

وستتألمين وتأخذين عندئذٍ

ببياضاتٍ ندمٍ برّصاء.

غائبًا وبالأملِكِ نفسها

لا بدّ من المرورِ ما بينَ بكاءِ برونزيّ

وقطيعِ ندمِ صاحبِ.

مأدبة

لم يأتِ اليومَ أحدٌ ليسألني،

ولم يطلبوا مني شيئاً هذا المساء.

لم أرَ حتّى وردةً مقبرة

في موكبِ الأضواءِ البهيجِ

أعذّرني يا سيّدي أنني لم أمث إلا قليلاً!

الجميعُ في هذا المساء.. الجميعُ يمضون

دونَ أن يسألوني أو يطلبوا مني شيئاً.

لا أدري ما الذي ينسونه ويبقى

في يديّ.. مثلَ شيءٍ غريبٍ.

خرجتُ إلى البابِ،

وبي رغبةً في أن أصرخَ بالجميعِ:

إذا ما اشتققتُم إلى شيءٍ.. فإنه هنا سيبقى!

لأنني في كلِّ مساءاتِ هذه الحياة،
لا أعرفُ أيةَ أبوابٍ يغلقونها أمامَ الوجه،
وأَيُّ شيءٍ غريبٍ تأخذُه رُوحِي.
اليومَ لم يأتِ أحدٌ؛

وكم كان موتي قليلاً هذا المساء!

ورقة الألف

بائعُ اليانصيبِ المُنادي «ورقةُ الألف»،
يَنطوي على معنَى للرَّبِّ لا أدري كُنْهه.
تمرُّ جميعُ الشفاه. والضَّجْرُ يُطلُّ
خشباً فحمياً من تجاعيد وجهه.
يَمُرُّ بائِعُ اليانصيبِ وهو يكتنِزُ
اسمياً، مثلَ إله،

ما بينَ أرغفةِ خُبزٍ تانتالية¹¹(1)،

عجزاً إنسانياً عن الحُبِّ.

أنظرُ إلى أسمايه. يمكنُ له هو

أن يمنحنا القلب؛

ولكنَّ الحَظَّ الذي يَحْمِلُهُ بين يديه،

وينادي عليه بصوتٍ عالٍ،

مثلَ عصفورٍ قاسٍ، سيتوقف

حيثُ لا يعرفُ ولا يشاءُ

هذا الإله البوهيمي.

وأقولُ في يومِ الجمعة.. هذا اليوم الدافئ

المنحدرِ بتناقلٍ تحتَ الشَّمسِ:

كيفَ تتنكَّرُ مشيئةُ الرَّبِّ

بزيِّ بائعٍ يانصيب!

خبزنا

إلى أليخاندرُو غامبوا

تشرَّبُ الفطورَ... أرضُ مقبرةٍ رطبة

تعقبُ برائحةٍ دمٍ حبيب.

مدينةٌ شتائيةٌ... حملةٌ لاذعة

لعربة تجرُّ كما يبدو

انفعالٍ صيامٍ متتالٍ!

أريدُ طرقَ كُلِّ الأبوابِ،

والسؤالُ لستُ أدري عَمَن؛ وبعدَ ذلك

رؤيةَ الفقراءِ،

إعطاءَ كسرةِ خبزِ ساخنٍ إلى الجميعِ.

وسلبَ الأغنياءِ فراديسهم

باليدينِ المقدستينِ

اللتينِ طارتا بومضةِ ضوءِ

منتزعتينِ مساميرهما من الصليبِ!

رفةً رمشِ صباحيةٍ.. لا تنهضوا!

خبزنا كفافَ يومنا أعطنا،

يا سيّدي...!

عظامي كلها غريبةٌ عني؛

ربما أكونُ قد سرقْتُها!

لقد جئتُ لأحصلَ على ما قد يكون

مُخصّصاً لغيري؛

وأظنُّ لو أنني لم أُولد،

لكان فقيرٌ آخرٌ سيشربُ هذه القهوةَ الآن!

إنني لصٌ سيئٌ... أينما ذهبت!

في هذه السّاعةِ الباردة، حيثُ الأرضُ

تعبقُ برائحةِ الثُّرابِ البشريِّ وهي حزينَةٌ جداً،

أرغبُ في طَرَقِ كُلِّ الأبوابِ،

وألتمسُ الصَّفحَ لست أدري ممَّن،

أصنعُ له قِطعاً صغيرةً من خُبزِ طازجِ

هنا، في فرنِ قلبي...!

المخدع الأبدى

عندما تنتهي الحياة، يصيرُ الحُبُّ قوياً!

والقبرُ يصيرُ حدقةً عظيمةً،

في قعرِها تحيا وتبكي

كأبةِ الحُبِّ، مثلما في كأسِ

عذوبةِ أبديةِ وفجرِ أسودِ.

وتتغصَّنُ الشِّفاهُ للقبلة،

مثلُ شيءٍ يغصُّ بالموت؛

وباقترانِ متشنج،

يَتَخَلَى كُلُّ فَمٍ لِلآخِرِ

عَنْ حَيَاةٍ حَيَاةٍ احتضارية.

عندما أفكّرُ هَكَذَا، يَصِيرُ القَبْرُ عَذْباً

حيثُ الجميعُ يتفاهمون

في الصخبِ نفسه؛

عذبٌ هو الظُّلُّ، حيثُ الجميعُ يتَّحدون

في موعدِ حبِّ كوني.

الخواتم المنهوكة

هناكُ رغباتٌ في الرُّجوعِ، في الحُبِّ، في عدمِ الغيابِ،

ورغباتٌ في الموتِ، مصارعاً

ماءين ملتقيين لا يُبرَزُحُ بينهما أبداً.

هناكُ رغباتٌ في قُبلةٍ عظيمةٍ تُكفّنُ «الحياة».

تُجهزُ على أفريقيّا احتضاراً متوقّداً.

هناكُ رغباتٌ في... عدمِ امتلاكِ رغبةٍ يا سيّدي:

وإليكُ أشيرُ بإصبعِ قاتلِ الإلهة:

هناك رغبة في ألا أكون قد امتلكت قلباً.

الربيع يرجع.. يرجع ثم يذهب. والرَّبُّ

منحنٍ في الزمن، يتكرر. ويمرُّ، يمرُّ

وعلى ظهره نخاع الكون الشوكي.

وعندما يقرع الصدغان طبلهما الكئيب

عندما يؤلمني الحلم المطبوع على خنجر،

تكون هناك رغبة في البقاء مغروساً في هذا الصَّيف!

أغنيات المنزل

الخطوات النائية

أبي ينام. وجهه الجليل

يرسم قلباً وديعاً؛

إنه شديد العذوبة الآن...

وإذا ما كان فيه شيء من المرارة.. فإنَّها أنا.

إنه وحده في المنزل؛ يُصلي؛

وليس من أخبارِ عن الأبناء اليوم.

أبي يستيقظ.. يُصيخ السَّمع مُنصتاً إلى

الهروب إلى مصر، الوداعُ المدوي.

إنه قريبُ الآنَ جداً؛

وإذا ما كانَ فيه شيءٌ بعيد.. فأِنَّه أنا.

أمي تَتَمَشَّى هُنَاكَ فِي البُسْتَانِ،

متذوقَةً مذاقاً لَمْ يَعُدْ لَهُ مذاق.

إنَّهَا الآنَ عذبةٌ جداً،

جناحُ جداً، خُرُوجُ جداً، حُبُّ جداً.

ثَمَّةٌ وَحشَةٌ فِي المَنْزِلِ الَّذِي بَلَا ضَجِيحٍ،

بَلَا أَخْبَارٍ، بَلَا اخْضِرَارٍ، بَلَا طِفُولَةٍ.

وإذا ما كانَ ثَمَّةً شيءٌ مَكسُورٌ فِي هَذَا المَسَاءِ،

يَنحَدِرُ وَيئْتِنُ،

فإنَّهُمَا دَرَبَانِ أبيضَانِ هَرْمَانِ.. مُنْحَنِيانِ.

مَنْ أَجْلُهُمَا يَمْضِي قَلْبِي مَاشِياً عَلَى قَدَمِيهِ.

أغنيات المنزل

إلى أخي ميغيل

أخي.. إنني الآنَ على مِصْطَبَةِ البَيْتِ،

حيث نفتقدك بعمق!

أتذكر أننا في مثل هذه الساعة كنا نلعب معاً،

وأن أمانة

كانت تُداعبنا: «ولكن.. يا أولاد...»

إنني أختبئ الآن،

مثلما كنا نفعل من قبل.. وكُل تلك الطقوس

المسائية، وآمل ألا تعثر عليّ،

في الصالة، في الدهليز، في الممرات.

ثم تختبئ أنت، ولا أعتز عليك.

أتذكر أننا كنا نصل إلى حدّ البكاء

في تلك اللعبة يا أخي.

ميغيل..

أنت اختبأت

في إحدى ليالي أغسطس، فجراً؛

ولكن، بدل أن تختبئ ضاحكاً، كنت حزيناً..

لقد ملّ قلبك التواءً في هذه الأمسيات المديدة

مِنْ عَدَمِ الْعَثُورِ عَلَيْكَ. وَهَا قَدْ

سَقَطَ ظِلُّ عَلَى الرُّوحِ.

اسْمَعْ يَا أَخِي.. لَا تَتَأَخَّرْ

فِي الظُّهُورِ. أَلَيْسَ كَذَلِكَ؟

فَقَدْ تَقَلَّقَ عَلَيْكَ أُمَّنَا.

الشاعر وحبيبته

حبيبتي، صَلَبَتِ نَفْسَكَ هَذِهِ اللَّيْلَةَ

عَلَى خَشْبَتِي قُبَلْتِي الْمُقَوَّسَتَيْنِ؛

وَقَالَ لِي حُزْنُكَ إِنْ يَسُوعَ قَدْ بَكَى،

وَإِنَّ هُنَاكَ جَمْعَةً حَزِينَةً أَشَدَّ عَذُوبَةً مِنْ هَذِهِ الْقُبَلَةِ.

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ الْغَرِيبَةِ، حِينَ نَظَرْتِ إِلَيَّ كَثِيرًا،

كَانَ الْمَوْتُ سَعِيدًا وَغَنَى فِي عِظَامِهِ.

فِي هَذِهِ اللَّيْلَةِ مِنْ سَبْتِمْبَرِ احْتَفَلْتُ

سَقَطَتِي الثَّانِيَةَ وَالْقُبَلَةَ الْأَكْثَرُ إِنْسَانِيَةَ.

حبيبتي، سَنَمُوتُ كِلَانَا مَعًا، وَمَعًا جَدًّا:

سَيَجْفُ بِبُطءٍ حَزْنُنَا الْمَرِيرُ السَّامِي:

وستلمسُ شِفاهُنا المِيتَةُ ظِلالاً.

لن يَكُونَ في عَينِكَ المِبارَكِتينِ أَيُّ تَأنيبٍ لي؛

ولن أُسَبِّبَ لكَ مزيِداً من العُضبِ.

سَننامُ كِلانا في قَبْرِ واحِدٍ،

مِثْلَ أخوينِ صَغيرينِ.

مختارات من ديوان «تريليثي»

III

في أيّ ساعةٍ سيرجعُ الكبارُ؟

يدقُّ سنتياغو الأعمى أجراسه معلناً

السادسة¹²(1)

وها هي ذي الظلمةُ تشتدُّ.

أمي قالت إنها لن تتأخرَ

أغيديتا، ناتيفا، ميغيل¹³(2)،

حذارٍ من الدَّهابِ بعيداً. فقلتو

مرثُ أرواحٍ محزونةٍ هائمةً،

تنشجُ ذكرياتها وتمضي

نحوَ الحظيرةِ السَّاكنةِ. والدَّجاجاتُ

التي مازالتُ تغفو،

فزعتُ كثيراً.

من الأفضلِ البقاءُ هنا وحسب.

فأُمنّا قالت إنها لن تتأخر.

لم نعد نشعر بالقلق. فنحن نراقب

الزوارق... وزورقي أجملها جميعاً!

لنلعبَ بها طيلةَ النهار،

دون أن نتشاجر.. مثلما يجبُ أن يكون:

إنها في بركةِ الماء.. جاهزة،

مُحمّلةٌ بالحلوى للغد.

فلننتظرَ عودتهم هكذا، مطيعينَ وحسب،

إرضاءً للكبار المُتقدمين دائماً

حين يتركُوننا نحنُ الصغارَ في البيتِ،

وكأننا نحن أيضاً

لا نستطيعُ الذهابَ.

أغيديتا، ناتيفا، ميغيل؟

أنادي، أتلّمسُ في الظلام.

هل تركتموني وحيداً،

وظللتُ أنا الحبيسُ الوحيد.

من ذواتِ الفلقتين، تُحَلَّقُ
 طيورُ النَّوَى، نزوعاً إلى ثلوث،
 إنَّها نهاياتُ تبدأ، آهاتُ الأَمْسِ
 تَحَسَّبُ أنَّها تزدادُ قيمةً بعدمِ التجانسِ.

آهٍ لذواتِ الفلقتين!
 فلنرَ. وليكنْ دونَ مزيدٍ.
 لنرَ. لا تتجاوزْ نحوَ الخارجِ.
 وفكرِ بصوتٍ لا يكونُ مَسْمُوعاً،
 واظلِ بطلاءِ كرومٍ غيرِ مرئيِّ.
 ولا تنزلقِ في الانهيارِ العظيمِ.
 الصوتُ الخادمُ تمرّدَ ولا يريدُ
 أن يكونَ زَرَدًا ولا أن يكونَ حُبًّا،
 فليبقِ الخطيبانِ خطيبينِ إلى الأبدِ.
 ولا تمنحوا (1)، لأنه صدى أزلِّي.
 ولا تمنحوا (0)، لأنَّه يصمُّ طويلاً،

إلى أن يستيقظ ويوقف ال (1) على قدميه.

آه لذواتِ الفلقتين.

VI

البدلة التي لبستها غداً

لم تغسلها غسّالتي:

كانت تغسلها بأوردتها الأوتيلية¹⁴(1)

بدفقة قلبها، واليوم

لن أتساءل إذا ما كنت أترك

البدلة يجعلها القهر.

الآن ليس هنالك من يذهب إلى المياه.

وعلى أوراق المسطرة يكوى

القماش متفليتا، وكلّ أشياء

الجزانة، لكثرة ما هي لي،

لم تعد كلها لي

إلى جانبي.

صارت ملكاً لها،

مَمْهُورَةً بِطَيْبِهَا السَّمَرَاءِ.

وَإِذَا عَرَفْتُ أَنَّهَا سَتَعُودُ؛

إِذَا عَرَفْتُ أَنَّهَا سَتَدْخُلُ غَدًا

لِئَسْلَمَنِي الْمَلَابِسَ الْمَغْسُولَةَ،

غَسَالَةُ رُوحِي تِلْكَ. سَتَدْخُلُ غَدًا

رَاضِيَةً، وَقَدْ انْجَزَتِ الْعَمَلُ، سَعِيدَةً

فَقَدْ أَثْبَتَتْ.. أَنَّهَا قَادِرَةٌ

وَكَيْفَ لِنَ تَقْدِرَا!

أَنْ تَغْسِلَ وَتَكْوِي كُلَّ الْفَوْضَى.

XII

أَتَفَادِي حَرَكَةَ مُخَادَعَةٍ، شَعْرَةً فَشَعْرَةً،

قَذِيفَةً لَا أَدْرِي أَيْنَ سَتَسْقُطُ.

ارْتِيَابٌ. فَوْضَى. مَفْصِلٌ عُثْقِيٌّ.

أَزِيرُ دَبُورٌ يَمُوتُ

يَسْقُطُ أَرْضًا فِي مَنْتَصِفِ طَيْرَانِهِ.

مَا الَّذِي يَقُولُهُ نِيوتن الآن؟

أَمَا أَنْتُمْ، بِالطَّبِيعِ، فَإِنَّكُمْ أَبْنَاءُ.

ارْتِيَابٌ. كَعُوبٌ لَا تَدُورُ.

وَجْهٌ فِي عُقْدَةٍ، مَصْنُوعَةٍ

مِنْ خَمْسِ أَشْوَائِكِ مِنْ جَانِبِ

وخميسٍ من الجانبِ الآخر: هَسْ!

ها قد خرجت.

XV

فِي ذَلِكَ الرُّكْنِ، حَيْثُ نَمْنَا مَعاً

لياليَ كثيرةً، جَلَسْتُ الْآنَ

ماثِياً. وَكَانَ سَرِيرُ العُرُوسِيْنَ المِيتِيْنَ

قَدْ سُحِبَ أَوْ رَبَّما مَضَى.

جِئْتُ مَبْكَرَةً مِنْ أَجْلِ شَأُونِ أُخْرَى

وَلَسْتُ مَوْجُودَةً الْآنَ. إِنَّهُ الرُّكْنُ

حَيْثُ قَرَأْتُ لَيْلَةً إِلَى جَانِبِكَ،

مَا بَيْنَ نِقَاطِكِ الطَّرِيَّةِ

قِصَّةً لِدُودِيَّتِ. إِنَّهُ الرُّكْنُ

الحَبِيبُ. فلا تُخطئيه.

جلستُ أتذكّرُ أيامَ

الصَّيفِ الدَّاهيةِ، أتذكّرُ دخولَكَ وخُروجَكَ،

ضئيلةً وضجرةً وشاحبةً عَبَرَ العُرْفِ.

في هذه اللَّيلةِ المُمطرةِ،

بعيداً عن كلينا، أقفزُ فجأةً...

إنَّهما بابانِ ينفتحانِ وينغلقانِ،

بابانِ يذهبانِ ويجيئانِ مع الريحِ

ظلاً لـِ ظلي.

XXIV

نحو حافةِ قبرِ مُزهرِ

تَسَلُّ مريماني باكيتانِ

تَبْكِيانِ بِحاراً.

نعامةُ الذِّكرى المنتوفةِ

تمدُّ ريشَتَها الأخيرةِ،

ويدُ بَطرسَ المُنكَرَةَ

تخطُّ بها في يومٍ أحدِ شعانين

تأبيناتٍ وأحجاراً رنَّانةً.

من حافةِ قبرٍ منبوش

مريماني مُغَيَّبَتانِ تبتَّعدانِ.

إنَّه يومُ الاثنينِ.

XXVII

يُخيفني هذا الوابلُ،

ذكرى طيبةً، سيدِّ قويٍّ، عذوبةً

قاسيةً لا تليئُ. يُخيفني.

هذا البيتُ يمنحني طمأنينةً كاملةً، مكاناً

كاملاً كيلا أعرفَ أينَ أنا.

لنمتنعَ عنِ الدخولِ. يخيفني هذا الصَّنيعُ

بالعودة، عبْرَ جسورٍ منسوفةٍ.

أنا لا أتقدَّمُ أيُّها السَّيدُ العذبُ،

أتذكَّرُ باسلاً، حزيناً

هيكلاً عظيماً غريباً

أَيُّ مَضْمُونٍ لِهَذَا الْبَيْتِ الْمَسْحُورِ،

يَمْنَحُنِي مَبْتَاتٍ زُبُقٍ، وَيَسُدُّ

بِرِصَاصٍ مَاخَذِي

فِي الْيَبَاسِ الرَّاهِنِ.

أَيُّهَا الْوَابِلُ الَّذِي لَا يَعْرِفُ كَيْفَ نَمُضِي،

أَعْطِنِي خَوْفًا، ذِعْرًا.

ذَكَرِي شَجَاعَةً، فَأَنَا لَا أَتَقَدَّمُ.

وَهَنَّاكَ هَيْكَلُ عَظْمِي أَشَقْرُ وَحَزِينٌ،

يُصَفِّرُ صَفِيرًا تَلَوَّ آخِرَ.

XXVIII

الآنَ فَقَطْ تَغْدِيثُ،

وَمَا مِنْ أُمَّ. مَا مِنْ تَوْسَلٍ. مَا مِنْ «أَخِدمَ نَفْسَكَ». مَا مِنْ مَاءٍ.

وَمَا مِنْ أَبِي، فِي طَقُوسِ تَقْدِمَةِ الدُّرَّةِ الْبَلِيغَةِ،

يَسْأَلُ عَنِ تَأْخُرِ صُورَتِهِ،

فِي أَزْرَارِ الصَّوْتِ الْكَبْرِيِّ.

كَيْفَ أَتَغْدِي. كَيْفَ سَأَسْكُبُ تِلْكَ الْأَشْيَاءَ

من الأطباقِ البعيدة،

بعد أن انكسرَ البيت،

بعد أن لم تعد تُطل أم من الشفتين.

كيف ستكونُ هذه التفاهةُ غدائي.

تغديثُ إلى مائدة صديقٍ طيبٍ

مع أبيه القادم للتو من الدنيا

ومع عمّتين شائبتين تتكلمان

برنينٍ من خزف،

تتهامسان بكلّ تجويفاتهما المترملة؛

وأدواتِ مائدة لامعة لها رنينٌ مرخٌ

لأنّها في بيتها. أجل، يا للطرافة

وقد أمتني سكاكينُ

تلك المائدة في كلّ تذوقي.

الأكلُ على هذه المائدة، حيثُ تتذوقُ

حُباً غريباً بدلاً من حُبك،

تتحولُ تراباً كلّ لقمة لا تقدّمها

الأم،

والابتلاعُ يصيرُ صَفْعَةً؛ والحلو

مرارةً؛ وتصيرُ القهوةُ زيتاً جنائزياً.

عندما انكسرَ البيت

ولمَّ يعدْ سكبُ طبقِ الأُمومةِ يخرجُ

من القبر،

صارَ المطْبَحُ قاتماً، وخبَّيمَ البؤسُ على الحُبِّ.

XXXIV

انتهى الغريبُ الذي كنتَ، في الليل المُتقدِّمِ،

ترجعُ معه والكلامُ يدورُ ويدورُ.

لم يعدْ هناكَ من ينتظرُنِي،

ومكاني مُهياً، والشرُّ خَيْرِ.

انتهى المساءُ الحارُّ؛

ومرفأكَ العَظِيمُ وصياحُكَ؛ وانتهى

التحدُّثُ مع أُمَّكَ المنتهية

التي كانتَ تقدِّمُ لنا شايًا مُفعمًا بالمساء.

انتهى كلُّ شيءٍ أخيراً: الإجازاتُ،

انصياغُك ملءَ الصّدرِ، طريقثُك

في الطلِبِ منّي عدمَ الدّهَابِ.

وانتهتُ أسماءَ التّدليلِ، وبدأ

نُضجِي الذي بلا نهايةٍ في الألمِ،

وميلادُنَا هكذا دونَ مُسوّغٍ.

XLII

انتظروا. سأروي لكم

كلُّ شيءٍ. انتظروا فليهدأ

وجعُ الرّأسِ هذا. انتظروا.

أينَ تركتُم أنفسكم

يا من لا لزومَ لهم على الإطلاق؟

لا لزومَ لأحدٍ! حسنٌ جداً.

روسا تدخلُ من الطّابقِ الأخيرِ.

إنني طفلٌ. ومرةً أخرى روسا:

أنتِ تعرفينَ إلى أين أمضي.

أَتَعَذَّبُ نَجْمَةَ الْمَوْتِ؟

أَمْ إِنَّهَا آلاَتُ خِيَاظَةِ غَرِيبَةٍ

فِي الْخَاصِرَةِ الْيُسْرَى.

انْتَظَرُوا لِحِظَةً أُخْرَى.

لَمْ يَرْنَا أَحَدًا. بَوْرَا

ابْحَثِي عَنِ الْخَاصِرَةِ،

إِلَى أَيْنَ قَفَزْتَ عَيْنَاكِ!

تَدْخُلُ مُجَسَّدَةً فِي صَالَاتِ

الزُّجَاجِ الْغُرُوبِيِّ.

تَسْمَعُ مُوسِيقَى مَضْبُوطَةً تُثِيرُ الْأَسَى.

أَشْعُرُ بِتَحْسِنٍ. دُونَ حُمَىٍ.. وَبِحِمَاسَةٍ.

رَبِيعٌ. الْبَيْرُ. أَفْتَحُ عَيْنِيَّ.

أَيُّهَا الطَّائِرُ! لَا تَخْرُجْ. رَبَّاهُ، كَأَنَّهُ يِرْتَابُ

بِمَدِّ دُونَ جَزْرِ.. آه.

لَوْحَةٌ وَجْهِيَّةٌ، تَنْزَلِقُ السَّنَارَةَ

تَتَسَعُّ لِلْقَوَاقِعِ.

تفاهةً. نامي يا تيليا.

LI

كذبُ. لقد فعلتُ ذلكَ للخداعِ،¹⁵⁽¹⁾

وليسَ أكثرَ، كفى. وإلاًَّ

فأنتِ أيضاً ستريين

كم سيؤلمني حدوثُ ذلكِ.

كذبُ. اصمتي.

لا بأسَ.

مثلما فعلتِ أنتِ بي في مراتٍ أخرى،

كنتُ أنا هكّذا أيضاً.

أنا راقبتُك إن كنتِ حقاً

تبكين،

ففي مراتٍ أخرى كنتِ تبقين

عندَ حدودِ «تكشيرتك» الحلوة،

ولم أكن أحلمُ بأنك ستُصدِّقني،

فغَلَبتني دُموعُك.

كفى.

ثم إنك تعرفين: كلُّ شيءٍ كانَ كذباً.

إذا واصلتِ البُكاء، حسنِ إذن!

لن أراكِ مرةً أخرى وأنتِ تَلعبين.

LXI

الانتظار

أنزلُ اللَّيْلَةَ عن الحصان،

أمامَ بابِ البيتِ، وكنثُ

ودَّعتهمُ مع صياحِ الديك.

البابُ مُغلَقٌ ولا من يردُّ.

المِصطبةُ الحجريَّةُ التي عليها أضاءتُ أمي

للأخِ الأكبرِ، كي يُسرجَ

الصهواتِ التي امتطيتها عاريةً،

عبرَ دروبٍ وأسيجةٍ، طفلاً قروياً؛

المِصْطَبَةُ التي تركتُ عليها طفولتي المَعْدَبَةُ

تُصَفِّرُ تحتَ الشَّمْسِ... ما هذا الحدادُ

الذي يكتنِفُ الواجِهَةَ؟

لا بدَ أنَ أبي يَسهرُ مصلِيًا، وربما

يُفكِّرُ في أني قد تأخرتُ طويلًا،

والأخواتِ يترنمنَ بأحلامهن

البسيطةِ، الصاخبةِ،

ويحضرنَ للعيد الذي يقتربُ،

ولم يعدَ ينقصُ أيُّ شيء.

أنتظرُ.. أنتظرُ، والقلبُ اليومَ

بيضةٌ تنسدُّ في حينها.

أسرةٌ كبيرةٌ تركناها

ليسَ منذُ وقتٍ طويلٍ،

واليومَ لا أحدَ يسهرُ، وليسَ من شمعة

موضوعةٍ على المذبحِ من أجلِ عودتنا.

أطرقُ مرةً أخرى، ولا شيء.

نصمتُ ونغرقتُ، أنا وروحي، في التَّحِيبِ،

والحيوانُ يسهلُ، ويسهلُ بقوةِ أكبر.

جميعُهم نيامٌ إلى الأبد

وعلى أحسنِ وجهٍ،

وينتهي حِصاني المنهوكُ بدوره

إلى هزِّ رأسيهِ،

ويقولُ وهو نصفُ نائمٍ

إنَّ الأمورَ جيدهُ، وكلُّ شيءٍ على ما يُرام.

LXV

سأذهبُ يا أمَّاهُ إلى سنْتياغو غدًا،

لأُضمِّخَ نفسي بمباركتِك ودُموعِك.

إنني أرْتبُ خيَّباتِ أُملي وقروحَ مشاغلي الرَّائفةِ.

سينتظرُنِي قوسُ خوفِك،

وأعمدةُ لهفتِكِ المُقطوعةِ

التي تُنهي الحياة. سينتظرُنِي فناءُ البيتِ،

الردهةُ السفليةُ وأرغفةُ خبزِ الذرةِ وكعكُ

العيد. سينتظرني مَقْعدي المُؤدب.

قطعةُ الأثاثِ العتيقةُ تلكَ

ذاتُ الجلدِ السُّلاليِّ العريقِ،

التي لم تَعُدْ قادرةً على التَّدْمُرِ مِنْ مؤخراتِ

حفيداتِ الحفيدات.

إنني أغربُ أنقى ما لديَّ من مَحبة.

إنني أمحورُ، ألا تسمعينَ لهاثَ المسبارِ؟

ألا تسمعينَ دويَّ الأبواقِ؟

إنني أصوغُ معادلتك في الحُبِّ

لأجلِ كلِّ شقوقِ هذه الأرضِ.

آه لو تتأهبُّ التناييرُ الخفيةُ

لأجلِ كلِّ الشرائطِ الأكثرِ بُعداً،

كلِّ المواعيدِ الأكثرِ بُعداً.

هكذا أَيْتُها الميتهُ الخالدةُ، هكذا.

تحتَ أقواسِ دمكِ المضاعفةِ، حيثَ

يجبُ المرورُ على رؤوسِ الأصابعِ،

وحتى أبي نفسه

من أجل الذهاب إلى هناك،

يتذلل إلى ما دون نصف رجل،

إلى أن يصير الصغير الأول الذي أنجبته.

هكذا أيتها الميتة الخالدة.

ما بين أعمدة عظامك

لا يمكن أن تسقط حتى الدموع

ولا يمكن للقدر أن يدخل

إصبعاً واحداً.

هكذا أيتها الميتة الخالدة.

هكذا.

LXXV

إنكم ميّتون.

ويا لها من طريقة غريبة في الموت.

قد يقول أي شخص إنكم لسئتم كذلك.

ولكنكم في الحقيقة ميّتون.

تَطْفُونَ عَبثاً وراءَ غِشاءِ يَنُوسٍ

من سَمَتِ السَّمَاءِ إلى سَمَتِ الأَرْضِ،

يَجِيءُ وَيَذْهَبُ مِنَ الشَّقَقِ إلى العَسَقِ،

مَهْتَزاً أَمَامَ عَلبَةٍ رَنَّانَةٍ لَجَرِحٍ لا يُؤَلِّمُكُمْ.

أَقولُ لَكُمْ،

إنَ الحِياةَ في المِراةِ، وإِنَّكُمْ أَنْتُمْ الأَصْلُ: المِوْتُ.

بينما المِوَجَةُ تَذْهَبُ، بينما المِوَجَةُ تَجِيءُ؛

كَمَ يَكُونُ المِراءُ قَدَ ماتَ دُونَ عِقابِ.

عَندما تَتَكَسَّرُ الأَمِواهُ على حَافَاتِ مِتقَابِلَةٍ

وَتَنْطوي وَتَنْطوي،

عَندئِذٍ فَقطُ تَغَيِّرُونَ هِيتَكُمْ،

وَتَدْرِكُونَ الحِبلَ السَّادِسَ الَّذِي لَمْ يَعدِ حِبلَكُمْ،

مِعتَقِدِينَ بِأَنَّكُمْ تَمُوتُونَ.

إِنَّكُمْ مَيِّتُونَ،

ولمَ تَعرِفُوا الحِياةَ قَطُّ مِنْ قَبْلِ.

وقَدَ يَقولُ أَيُّ شَخِصٍ - وَأَنْتُمْ غَيرُ مِوجودِينَ الآنَ -

إِنَّكُمْ قَدْ وُجِدْتُمْ مِنْ قَبْلُ.

لَكُنْكُمْ فِي الْحَقِيقَةِ جُثْ حَيَاةٍ مَا وُجِدَتْ قَطُّ.

يَا لَبُؤِيسِ الْمَصِيرِ.

فَأَنْتُمْ لَمْ تَكُونُوا إِلَّا أَمْوَاتًا عَلَى الدَّوَامِ،

وَرَقَّةٌ يَابِسَةٌ.. لَمْ تَعْرِفِ الْخُضْرَةَ قَطُّ.

يُتَمُّ الْيُتَمُّ.

وَمَعَ ذَلِكَ، فَالْأَمْوَاتُ لَيْسُوا أَمْوَاتًا،

وَلَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يَكُونُوا جُثْ حَيَاةٍ لَمْ يَعِيشُوهَا بَعْدُ.

لَقَدْ مَاتُوا دَائِمًا وَهُمْ أَحْيَاءُ.

إِنَّكُمْ مَيِّتُونَ.

LXXVII

يَهْطَلُ وَابِلٌ مِنَ الْبَرْدِ، وَكَأَنَّهُ يَرِيدُنِي أَنْ أَتَذَكَّرَ

وَأَكْثَرَ اللَّالِيءِ

الَّتِي جَمَعْتُهَا

مِنْ خَرَطُومٍ كُلِّ عَاصِفَةٍ.

لَنْ يَجِفَّ هَذَا الْمَطَرُ.

إلا حينَ أنقأدُ إليه، أو يدفنونني

مُبللاً بالماءِ

ماءِ يمدّه بنيران.

إلى أيِّ علوٍ سيصلُ هذا المطرُ؟

أخشى أن يبقى أحدُ جوانبي جافاً؛

أخشى أن ينقضني. دونَ أن أكونَ قد جرّبتُ

جفافَ الأوتارِ الصوتية التي لا تُصدّق،

والتي

من أجلِ تجانسِها،

يجبُ الصعودُ دوماً.. ولا هبوطَ البتّة!

ألا نصعدُ نحنُ إلى أسفل؟

غنّ يا أيُّها المطرُ،

على السّاحلِ الذي ما زالَ بلا بحرٍ!

مختارات من ديوان «إسبانيا، أبعدني عني هذه الكأس»

حشد

في نهاية المعركة،

بعد أن مات المقاتل، جاءه رجل

قال له: «لا تمت؛ لقد أحببتك جداً!»

لكنّ الجثة - آه - واصلت موتها.

دنا منه اثنان وكرّرا:

«لا تتركنا أيها الجسور! عد إلى الحياة!»

لكنّ الجثة - آه - واصلت موتها.

هرع إليه عشرون.. مئة ألف.. خمسمئة ألف

هاتفين: «أليس لكل هذا الحب قدرة على الموت!»

لكنّ الجثة - آه - واصلت موتها.

أحاط به ملايين البشر،

بتوسل مشترك: «ابق معنا أيها الأخ!»

لكنَّ الجثَّةَ - آه - واصلت موتَها.

عندئذٍ جاءَ أهلُ الأرضِ قاطبةً

وأحاطوا به؛ رآهم الميِّتُ الحزينُ بتأثر؛

فانتصبَ ببطءٍ،

وعانقَ أولَ واحدٍ منهم؛ وانطلقَ سائراً¹⁶⁽¹⁾...

10 نوفمبر 1937

قرع طبول مآتمية على أنقاض دورانغو

أبانا الترابَ الذي يعلو من إسبانيا،

ليحفظك الربُّ حرّاً وسيداً،

أبانا الترابَ الذي يتصاعد من الروح.

أبانا الترابَ الذي يتعالى من النَّار،

ليحفظك الربُّ ويُنْعِلَكَ ويُعْطِكَ عرشاً،

أبانا الترابَ الذي في السَّماء.

أبانا الترابَ.. حفيدَ الدُّخان،

ليحفظك الربُّ ويرفعك إلى الأعالي،

أبانا الترابَ.. حفيدَ الدُّخان.

أبانا الترابَ الذي يَنْتهِي فِيهِ الْعَادِلُونَ،

لِيَحْفَظُكَ الرَّبُّ وَيُعِدُّكَ إِلَى الْأَرْضِ،

أبانا الترابَ الذي يَنْتهِي فِيهِ الْعَادِلُونَ.

أبانا الترابَ الذي يَنْمُو فِي النَّخِيلِ،

لِيَحْفَظُكَ الرَّبُّ وَيَكْشِفُ صَدْرَكَ،

أبانا الترابَ، يَا رَعْبَ الْعَدَمِ.

أبانا الترابَ، أَيُّهَا الْمَرْكَبُ مِنْ حَدِيدِ،

لِيَحْفَظُكَ الرَّبُّ وَيَمْنَحَكَ هَيْئَةَ بَشَرٍ،

أبانا الترابَ الذي يَمْضِي مُلْتَهَبًا.

أبانا الترابَ، يَا صَنْدَلِ الْمَنْبُودِ،

لِيَحْفَظُكَ الرَّبُّ وَلَا يَطْلُقَكَ أَبَدًا،

أبانا الترابَ، يَا صَنْدَلِ الْمَنْبُودِ.

أبانا الترابَ الذي يُذَرِّيهِ الْبَرَابِرَةُ،

لِيَحْفَظُكَ الرَّبُّ وَيُحِطَّكَ بِآلِهَةٍ،

أبانا الترابَ الذي تَحْرُسُهُ الدَّرَاتُ.

أبانا الترابَ، يَا كَفْنَ الشَّعْبِ،

ليحفظك الربُّ من الشرِّ إلى الأبد،

أبانا تراب إسبانيا.. يا أبتاه.

أبانا الترابَ الذي يمضي إلى المُستقبل،

ليحفظك الرب، ويُعدُّك ويمنحك أجنحة،

يا أبانا الترابَ الذي يمضي إلى المُستقبل.

حذارِ إسبانيا

حذارِ إسبانيا من إسبانياكِ نَفْسِها!

حذارِ من منجلٍ دونَ مطرقةٍ!

حذارِ من مطرقةٍ دونَ منجلٍ!

حذارِ من الصَّحبةِ رَغَمَ أنفه،

ومِنَ الجَلادِ رَغَمَ أنفه،

ومن المُستهترِ رَغَمَ أنفه!

حذارِ ممَّن يُنكرُكِ ثلاثاً

قبلَ صياحِ الدِّيكِ،

وممَّن أنكرُكِ ثلاثاً بعدَ صياحِ الدِّيكِ!

حذارِ من الجماجمِ دونَ عظمتي ساق،

ومن عظمتي ساقٍ دونَ جماجمٍ!

حَذَارِ مِنَ الْأَقْوِيَاءِ الْجُدَدِ!

حَذَارِ مِمَّنْ يَأْكُلُونَ جِثَّتَكَ،

وَمِمَّنْ يَلْتَهُمُونَ أَحْيَاءَكَ أَمْوَاتًا!

حَذَارِ مِنَ الْوَقْفِيِّ مِئَةً بِالْمِئَةِ!

حَذَارِ مِنَ السَّمَاءِ وَهِيَ أَقْرَبُ مِنَ الْهَوَاءِ،

وَمِنَ الْهَوَاءِ الَّذِي مَا وَرَاءَ السَّمَاءِ!

حَذَارِ مِمَّنْ يَحْبُونُكَ!

حَذَارِ مِنْ أِبْطَالِكَ!

حَذَارِ مِنْ أَمْوَاتِكَ!

حَذَارِ مِنَ الْجُمْهُورِيَّةِ!

حَذَارِ مِنَ الْمُسْتَقْبَلِ!...

إسبانيا، أبعدني عن هذه الكأس

يا أطفال العالم،

إذا ما سقطت إسبانيا - أقول، وهذا مجرد قول -

إذا ما سقط

من السماء إلى الحضيض ذراعها الذي يُمسكون به،

ففي الرّسن لوحتان أرضيتان؛

يا أطفال.. أيُّ سنّ هي سنّ الصّدغين المُقَعّرين!

كمّ هو مُبكر في الشّمس ما قلّته لكم!

كمّ هو مُبكر في صدرِكم صخبُ الشّيخوخة!

كمّ هو هَرَمٌ الـ 2 في دفترِكم!

يا أطفال العالم، ها هي ذي

إسبانيا الأمّ تحملُ بطنها على كاهلها؛

وها هي ذي معلمتنا ومعها عصاها،

ها هي ذي إسبانيا الأمّ والمعلّمة،

الصليبُ والخشبةُ، لأنها منحتكم أيّها الأطفال الرّفعة،

والدّوار والقسمة والجمّع؛

هي ذي إسبانيا ومعها آباءٌ مترفّعون!

إذا سقطتْ - أقول، وهذا مجردُ قول - إذا سقطتْ

إسبانيا من الأرض إلى أسفل،

فكيف ستتوقفون يا أطفال عن التّموا!

وكيف سيُعاقِبُ العامُ الشهرًا!

وتبقى الأسنانُ عند العَشْرَةِ،

ويبقى الحرفُ المُضَعَّفُ خربشةً والوسامُ عويلاً!

كيف سيبقى الحَمَلُ

مُقَيِّداً من قائمته إلى دَوَاةِ الحبرِ الضَّخْمَةِ!

وكيف ستُنزلونَ سُلَمَ الأبجديةِ

حتى الحرفِ الذي وُلِدَ فيه العذاب!

وفي أثناء ذلك أيُّها الأطفالُ،

يا أبناءَ المحاربينَ

اخفضوا الصوتَ لأنَّ إسبانيا توزَعُ في هذه اللَّحظةِ

الطاقةَ على مملكةِ الحيوانِ،

على الأزاهيرِ، وعلى النيازكِ والبَشْرِ.

اخفضوا الصَّوتَ فإنَّها

بالرَّغمِ من صرامتها العَظيمةِ، تتردَّدُ

غيرَ عارفةٍ

ما العملُ، والجُمجمةُ

في يدها تتكلم، تتكلم وتتكلم،

تلك الجمجمة ذات الصغيرة،

تلك الجمجمة.. جمجمة الحياة!

اخفضوا الصوت، أقول لكم،

اخفضوا الصوت، وترتيل الحروف¹⁷، ونحيب

المادة وأدنى حفيف للأهرام، بل

اخفضوا همس الأصداغ التي تبدو أحجاراً!

احبسوا الأنفاس، وإذا ما

سقط الساعد،

ودقت عصا المعلمة، وخيم الليل،

وإذا ما انحسرت السماء في

حاشيتين أرضيتين،

وإذا ما صار صرير الأبواب صجيجاً،

وإذا ما تأخرت،

ولم تروا أحداً، وإذا ما أفرغتمكم

أقلام الرصاص المثلمة. إذا ما سقطت

إسبانيا الأم - أقول، وهذا مجرد قول -

فاخرجوا يا أطفال العالم؛

اخرجوا للبحث عنها!...

معارك

كان من عادته أن يكتب بإصبعه الكبير في الهواء:

«يحيا الرفاق!..»

بيدرو روخاس»¹⁸(1)

إنه أب وإنسان من ميراندا دي إيبرو،

زوج وإنسان، عامل سكة حديد وإنسان،

أب وفوق ذلك إنسان، إنه بيدرو وممتاه.

يا ورقة الريح، لقد قتلوه!

يا ريشة اللحم، لقد قتلوه!

أخبر جميع الرفاق فوراً!

أيُّها الخشبة التي علقوا عليها خشبته،

لقد قتلوه؛

قتلوه عند سفح إصبعه الكبير!

قَتَلُوا بَيَدِهِمْ وَقَتَلُوا رُوحَاسَ مَعَا!

حِينَ فَتَشُوهُ مَيِّتًا

بِجَسَدِهِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَتَسَعُّ

لرُوحِ الْعَالَمِ

وَجَدُوا فِي جَيْبِ السُّتْرَةِ مِلْعَقَةً مَيِّتَةً.

كَانَ مِنْ عَادَةِ بَيَدِهِمْ أَنْ يَأْكَلَ أَيْضًا

مَعَ أَوْلَادِ لَحْمِهِ، وَكَانَ مِنْ عَادَتِهِ أَنْ يُنْظَفَ

الْمَائِدَةَ... وَيَعِيشُ بَعْدُوبَةً.

كَمَا الدُّنْيَا قَاطِبَةً.

كَانَتْ الْمِلْعَقَةُ فِي سُتْرَتِهِ دَوْمًا،

وَهُوَ مُسْتَيْقِظٌ أَوْ حِينَ يَنَامُ...

لَا تُفَارِقُهُ أَبَدًا،

مِلْعَقَةُ مَيِّتَةٌ حَيَّةٌ، هِيَ وَرُمُوزُهَا.

نَبَّهَ الرِّفَاقَ جَمِيعَهُمْ فَوْرًا!

يَحْيَا الرِّفَاقُ كُلَّهُمْ عِنْدَ قَدَمِي هَذِهِ الْمِلْعَقَةَ إِلَى الْأَبَدِ!

بَعْدَ مَوْتِهِ، نَهَضَ بَيَدِهِمْ رُوحَاسَ

قَبْلَ نَعَشِهِ الدَّامِي،

بَكَى إِسْبَانِيَا

وَعَادَ لِيَكْتَبَ بِإِصْبَعِهِ فِي الْهَوَاءِ:

«يَحْيَا الرَّفَاقُ!

بِيدِرُو رُوخَاسُ.»

وَكَانَتْ جُثَّتُهُ دُنْيَا تَضْجُ بِالْحَيَاةِ.

Notes

[1←] يرى بعض الدارسين أن بايخو قد اشتق كلمة *Trilce* من العدد ثلاثة *Tres*، مستندين في ذلك إلى الولع الذي يبديه بايخو بالأعداد في هذا الكتاب. ويرى آخرون أن الكلمة مركبة من المقطع الأول من كلمة *Triste* (حزين) والمقطع الثاني من كلمة *Dulce* (حلو).

[2←]⁽¹⁾ - توفي سيسر بايخو في باريس يوم 15 ابريل (نيسان) 1938، في الساعة التاسعة وعشرين دقيقة صباحاً. وقد كان صباحاً مطراً، حسب ذكريات شهود عيان. وحول هذه القصيدة بالذات، من المناسب الإشارة إلى رؤيا سيسر بايخو المبكرة (في عام 1920)، حين كان مُطَارِداً والتجأ إلى بيت صديقه انتينور اوريغو. ويروي صاحب البيت قصة تلك الرؤيا كما يلي: «استيقظت في إحدى الليالي مذهولاً على صرخات يائسة يطلقها ضيفي وهو يستدعيني من فراشه. كان بايخو أمامي، وكان يرتجف ويختلج من قمة رأسه إلى أخمص قدميه كمن شرب سمّاً. وقال لي: لقد رأيت نفسي في باريس وحولي أناس لا أعرفهم، وإلى جانبي امرأة لا أعرفها أيضاً. وبعبارة أدق، كنت ميتاً، وقد رأيتُ جثتي. ولم يكن هناك من يبكي عليّ. وكان طيف أُمي في الفضاء تمد ذراعيها إليّ مبتسمة (...) أوكد لك أنني كنتُ مستيقظاً. وقد رأيتُ الرؤيا بملامح شديدة الحيوية وكأنها الواقع نفسه».

[3←]⁽¹⁾ نشير إلى أن بايخو اعتقل في أحد سجون البيرو منذ أغسطس (آب) 1920 حتى فبراير (شباط) 1921، بتهمة التحريض على الشعب.

[4←]⁽¹⁾ تعبير أم الخروف (*La madre del cordero*): شائع الاستخدام في إسبانيا بمعنى مفتاح اللغز، أو سبب المشكلة وعلتها. ويبدو أن بايخو تعمد الخلط الدلالي حين

وصف المرأة الولود بأنها «أم الخروف» باعتبارها الضحية البريئة من جهة، ومفتاح السر من جهة أخرى.

[5←⁽¹⁾] - يتكهن بعض الدارسين بأن «الرجل» الذي يعنيه بايخو في هذه الأبيات هو ألفونسو سيلفا، صديقه الحميم في سنواته الباريسية. وقد رثاه الشاعر بقصيدة تحمل اسمه، عنوانها «ألفونسو: إنك تنظر إليّ، أرى ذلك».

[6←] ألفونسو دي سيلفا (1903-1937) فنان موسيقي من البيرو. تعرف إليه بايخو في باريس في يوليو (تموز) 1923. «إنني في باريس منذ ثلاثة شهور، وأنا أعيش يوماً وبأخوية تامة مع سيلفا، إنه العظيم الوحيد الذي التقيت به حتى الآن في أوروبا» (من رسالة كتبها بايخو إلى كارلوس رايفادا في 15 سبتمبر (أيلول) 1923. وقد رجع سيلفا إلى ليما عام 1930، وعاش فيها حتى وفاته في يوليو (تموز) 1937.

[7←] (شارع ريبو) la rue de Riboutti: في عام 1923 مرّ بايخو بأوقات عصيبة في باريس، فقد كان عليه أن يترك النزل الذي يعيش فيه، وبذل صديقه سيلفا جهوداً كبيرة ليوفر له إقامة بمئة فرنك مستدانة، ووجد ضالته في شارع ريبو، في نزل يدعى فندق ساكار.

[8←] تشولو: خلاسي مُوَلَّد من أب أوروبي وأم هندية أمريكية، وقد كان بايخو تشولو.

[9←⁽¹⁾] بالفرنسية في الأصل: du vin, du lait, comptant les sous: أشتري النبيذ، والحليب، وأحصي دريهماتي القليلة.

[10←⁽¹⁾] - اتيليون: نسبة إلى أتيليا، ملك قبائل الهون التي خرجت من شواطئ بحر قزوين وغزت روما في القرن الخامس.

[11←]⁽¹⁾ - نسبة إلى تانتالو Tantalos: شخصية أسطورية إغريقية، عاقبه الإله زيوس بالحرمان من الطعام والشراب مع أن الماء كان يصل إلى شفثيه ولكنه يهرب منه حين يهم بالشرب، وتتدلى فوقه الأغصان المثمرة حتى إذا همّ بقطف ثمارها ابتعدت عنه. ويشار به إلى ما هو في متناول اليد ولكن لا يمكن الحصول عليه.

[12←]⁽¹⁾ سنتياغو هو عجوز أعمى كان قارع أجراس كنيسة القرية.

[13←]⁽²⁾ - أختا الشاعر الصغيرتان وأخوه ميغيل الذي توفي.

[14←]⁽¹⁾ أوتيليا Otilia: فتاة أحبها الشاعر في ليما.

[15←]⁽¹⁾ يرى بعض الدارسين أن بايخو يتوجه في هذه القصيدة بلغة طفولية إلى حبيبته أوتيليا، بينما يرى آخرون أنه يعتمد إلى استخدام اللغة الطفولية للإشارة إلى أحداث وألعاب من طفولته في سنتياغو دي تشاكو.

[16←]⁽¹⁾ يقول سيسر بايخو في الصفحة 69 من مؤلفه النقدي «ضد سر المهنة» ما يلي: «إذا ما اجتمعت رحمة البشر أجمعين وإشفاقهم في لحظة موت أحدهم لمنعه من الموت، فإن هذا الإنسان لن يموت».

[17←]- في هذا المقام تروى قصة منسوبة إلى الروائي الكوبي أليخو كاربينتير تقول: في أثناء مؤتمر الكتاب الذي انعقد في بنسبيا ومدريد في الأيام الأولى من شهر يوليو (تموز) 1937، وحضره بايخو، قام المؤتمرين بزيارة إلى قرية مينغلانيبيا، وبينما كانوا مجتمعين في إحدى قاعات مبنى البلدية الذي تطل نوافذه على ساحة صغيرة «بدأ بعض الأطفال فجأة اللعب في الساحة؛ كانوا عشرة.. عشرين... خمسين طفلاً، وكانوا يتساءلون من هم هؤلاء الغرباء، ثم بدؤوا يغنون - حسب قول كاربينتير - بمعجزة عفوية».

[18←⁽¹⁾] - في كتابهما «إسبانيا في سيسر بايخو» يوجز خ. بيليث و آ. ميرينو الأخبار التالية من «إئي أشهد» وهو كتاب شهادات عن أحداث الحرب الأهلية الإسبانية لأنطونيو رويث بيلابلانا «أحد أول الأحداث التي دفعتنا إلى العمل، هو العثور على جثة بجانب مقبرة بورغوس، وكانت جثة فلاح فقير من ساسامون... كان شاباً نسبياً، قوياً وأسمر، يرتدي ملابس بائسة، وكان وجهه مشوهاً بصورة مريعة بالرصاص. ومثلما يحدث عادة، لم يكن هناك من يتجرأ على التعرف إليه. وقد عُثر في أحد جيوبه على ورقة خشنة ومنتسخة كُتب عليها بقلم رصاص، بخط متعثر وبأخطاء إملائية: (نبه جميع الرفاق، وارجلوا بسرعة./ إنهم يضربوننا بوحشية ويقتلوننا./ إنهم يرون خسارتهم، ولا يريدون سوى الهمجية.)

وفي الصفحة التالية يكتب أنطونيو رويث بيلابلانا: «في يوم 17 سبتمبر، بالقرب من مصنع الحرير [في بورغوس]، ذهبنا لرفع جثة رئيس إحدى ورش المصنع... كان مقيد اليدين، وبدا واضحاً أنه قد ضُرب بشدة، وكان ما يزال يحتفظ في جيبه بشوكة وملعقة من الألمنيوم أعطيتا له في السجن الذي كان محبوساً فيه، والذي اقتيد منه إلى الإعدام.

1. الغلاف
2. قصائد إنسانية
3. مقدمة
4. حجر أسود فوق حجر أبيض 2(1)
5. أشعر بالبرد من الحر الخالص
6. مختارات من ديوان «النذر السود»
7. مختارات من ديوان «تريبيثي»
8. مختارات من ديوان «إسبانيا، أبعدي عني هذه الكأس»
9. Notes